سِيرَةُ خَاتَمِ النَّبِيِّين

لِلأَطْفَال



كتبها العلامة

أبو الحسن الندوي



سِيرَةُ خَاتَمِ النَّبِيِّين

للأطفال

الطبعة الرابعة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بطاقة الفهرسة

الندوي ، أبي الحسن على الحسني

سيرة خاتم النبيين للأطفال ، تأليف/ أبي الحسن على الحسني الندوي .

دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣م

١٦٠ص ، ٢٤

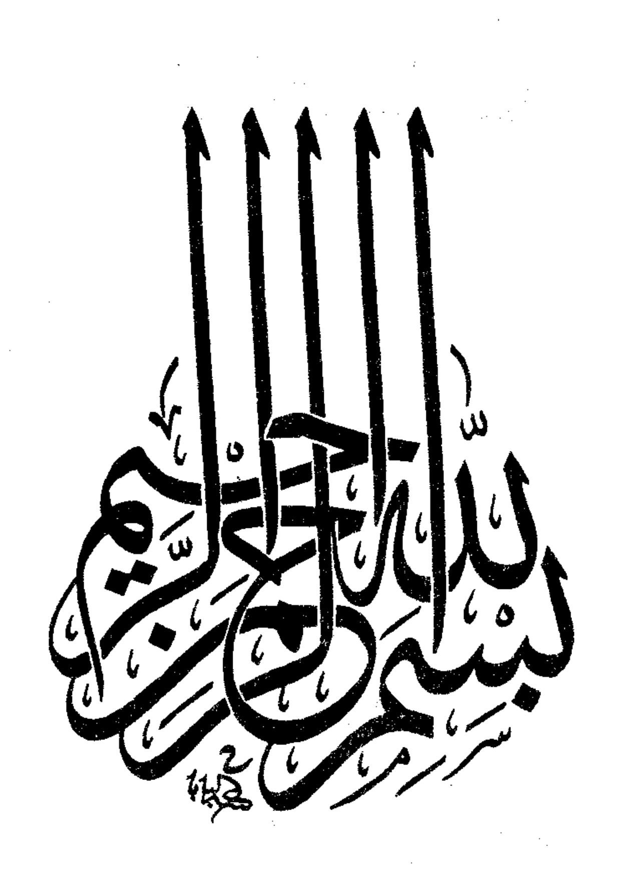
رقم الإيداع : ١٠٥٨٥/ ٩٨

الترقيم الدولي : ٧ - ٩٧ - ٥٨٢٦ - ٩٧٧

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com
E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com
www.facebook.com/DarAlkalema


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين .

أما بعد ، فإن أكبر مجموعة من الكلمات وأبلغ بيان يقصران عن إيفاء حق الحمد والشكر لله تعالي ، وعن التعبير عن السرور الذي يغمر قلب كاتب هذه السطور وهو يقدم الجزء الأخير لسلسلة « قصص النبيين للأطفال » وهو الجزء الخاص بسيرة خاتم النبيين ﷺ ، وقد مد الله عمر الكتاب ورافقه التوفيق الإلهي فأكمل هذه السلسة المباركة وختمها بختم هو مسك الختام ، ولو عجلت به منيته ومات قبل أن يكملها لحمل معه حسرة لا تنتهي ، وحاجة في نفس يعقوب ما قضاها ، وقد كان الشيء الزهيد من الأشغال والحوادث كافيا ليشغله عن وضع هذا الكتاب وإكمال هذه السلسلة ، وفي تاريخ التأليف والكتابة وتراجم المؤلفين الكبار نماذج من السلاسل التي لم تكمل ، والأعمال التي لم تتم .

وقد تعرض المؤلف نفسه لمثل هذا الخطر ، فقد وقعت فترة مدة ثلاثين سنة بين جزء « قصص النبيين » الذي انتهى إلى قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وبين الجزء الذي ابتدأ بقصة سيدنا شعيب ، وانتهى إلى قصة سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، وما بالحياة ثقة ، وليس على ريب الزمان معول ، ولكن أدركه اللطف الإلهي ، وحالفه التوفيق ، فشرع في وضع السيرة النبوية للأطفال علي إثر انتهائه من تأليف الجزء الأخير من « قصص النبيين » وذلك في شوال سنة ١٣٩٥ هـ ، وعكف على تأليف هذا الكتاب حتى انتهى في مدة قريبة ، ثم اشتغل بتأليف الكتاب الكبير في السيرة النبوية ، وقد كان هذا الكتاب الصغير نواة هذا الكتاب الكبير وأساسه ،

ووفق لإتمامه في غرة شوال سنة ١٣٩٦هـ[1].

وقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على تلخيص السيرة النبوية لابن هشام ـ الذي هو من أقدم كتب السيرة الموجودة الآن مطبوعة متداولة وأكثرها تأثيراً في النفوس والقلوب ـ مستندا في ذلك إلى بعض المراجع القديمة وكتب الصحاح ـ ولم ير المؤلف ضرورة إحالة القارئ إلى هذه المراجع بقيد الصفحات والطبعات ؛ لأن الكتاب قد ألف للصغار الناهضين لا للباحثين والمحققين ـ مقتصرا على النصوص والروايات ، لم أمزجها بالبحوث العملية والتعليلات الفلسفية والشهادات الأجنبية ؛ لأن ذلك يشغل القارئ عن التشبع بروح السيرة والتذوق بجمالها ؛ ولأن موضع هذه المباحث للكتاب الكبير الموسع في موضوع السيرة ، الذي كتب للمتوسعين في الثقافة ، المتقدمين في مداركهم العقلية والعلمية ، المواجهين للتساؤلات العصرية والكلامية ، والدراسات المقارنة .

ولم أتقيد في هذا الكتاب بالالتزامات التي ألتزمتها في الأجزاء الأولى من «قصص النبيين للأطفال» من محاكاة أسلوب الأطفال ، وطبيعتهم وتكرار الكلمات والجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصة ، فقد شبَّ هؤلاء القراء الصغار عن طوقهم ، وتقدموا في ثقافتهم اللغوية ... ودرجتهم العقلية ، فأصبحوا قادرين على إساغة هذا الغذاء العلمي العقلي ، والتذوق لهذا القصة الرائعة لحياة أكبر إنسان وأشرف نبي .

وهكذا جاء الكتاب ـ بحول الله تعالى ـ وسطا بين الكتب التي ألفت في السيرة للكبار النابغين ، والكتب التي ألفت للصغار الناهضين ، فهو جدير بأن يدرسه الصغار المراهقون في مدارسهم ، ويقرؤه الكبار المتوسطون في

---

(١) أخرجته دار الشروق في جدة باسم «السيرة النبوية» ، وصدرت من القاهرة في ربيع الآخر سنة ١٧٩٧ هـ (أبريل ١٩٧٧م) وجاء : ٤٧٥ صفحة بالقطع الكبير .

مكتباتهم ومنازلهم ، ويقدم كذلك إلى غير المسلمين ، أو ينقل إلى لغات أجنبية وقد جاءت فيه خلاصة السيرة ولبابها ، وروائع حكاياتها وأخبارها ، وتاريخ الدعوة الإسلامية الأولى وفتوحها وانتصاراتها ، وعجائب التربية النبوية ومعجزاتها ، فأصبح الكتاب مدرسة كاملة ينشأ فيها الطالب بين إيمان وحنان ويتقلب بين روح وريحان ، ويخرج منها وقد حمل معه الزاد الذي يسايره في حياته ، والنور الذي يسير في ضوئه ، والسلاح الذي يدافع به عن نفسه وإيمانه ، والرسالة التي يحملها للعالم والأمم .

ولما كان الكتاب قد ألف لتلاميذ المدارس الثانوية وما شاكلها ، رأى المؤلف ضرورة شرح المفردات الغريبة ، وما هي فوق مستوى هؤلاء القراء الصغار ، فطلب من الأستاذ نور عالم الأميني الندوى ، وهو يمارس التدريس في دار العلوم ندوة العلماء ، ويعرف مستوى أمثال هؤلاء التلاميذ الثقافي ، أن يتناولها بالشرح والإيضاح ، فقام بذلك مشكوراً ، جزاه الله خيراً .

وأخيراً ، لا آخر أحمد الله على هذا التوفيق وأشكره على آلائه ونعمه ، وأسأله القبول وأن ينفع به الجيل الجديد ، والناشئة المسلمة التي تحيط بها العواصف وتفرش في طريقها الأشواك .

والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . .

١٥ / من ذي القعدة ١٣٩٧ هـ

٢٩ / أكتوبر ١٩٧٧ م

أبو الحسن على الحسني الندوي

إدارة الشيخ علم الله

رأي بريلي

العصر الجاهلي

بعد نبي الله عيسى ابن مريم :

طالت الفترة [١] ، وساد الظلام في العالم ، وغاب النور والعلم ، وخفتت الأصوات التي رفعها الأنبياء والمرسلون في عصورهم ، بالتوحيد النقي والدين الخالص ، في صيحات الجهل والضلالة التي صاح بها المحترفون والدجالون ، وانطفأت المصابيح التي أوقدها أنبياء الله ورسله وخلفاؤهم ، من العواصف التي هبت حيناً بعد حين .

الديانات القديمة :

وأصبحت الديانات العظمى ـ وفي آخرها المسيحية السمحة ـ فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرِّفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون وأنبياؤها المرسلون أنكروها وتجاهلوها .

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس [٢] وتقاليد لا روح فيها ولا حياة ، وهي بصرف النظر عن ذلك ، ديانة سلالية لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، ولا للإنسانية رحمة .

أما المسيحية فقد امُتحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، منذ عصرها الأول ، وأصبح كل ذلك ركاماً دُفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة ، واختفى نور التوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء هذه السحب .

أما المجوس فقد عكفوا على عبادة النار ، يعبدونها ويبنون لها هياكل [٣]

---

(١) الفترة : الزمن الذي لم يبعث فيه نبي .

(٢) النظم والطرق الدينية .

(٣) جمع هيكل وهو البناء المرتفع ، والموضع الذي يكن في صدر المعبد يقرِّب فيه القربان .

ومعابد ، أمال خارج المعابد فكانوا أحرارا ، يسيرون على هواهم وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق ، في الأعمال والأخلاق .

أما البوذية ـ الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى ، فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل وتنصب تماثيل «بوذا» حيث حلت ونزلت .

أما البرهمية ـ دين الهند الأصيل ـ فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلة حتى بلغت إلى الملايين ، وبالتفاوت الظالم بين الطبقات ، والامتياز بين الإنسان والإنسان .

أما العرب فقد ابتلوا في العصر الأخير بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير إلا في الهند البرهمية الوثنية ، وترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، وانغمست[١] الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام ، بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنم خصوصي ، وكان في جوف الكعبة ـ البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده ـ وفي فنائها ثلاث مئة وستون صنما .

الجزيرة العربية

ساءت أخلاق العرب فأُولعوا بالخمر والقمار ، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات ، وشاعت فيهم الغارة ، وقطع الطريق على القوافل ، وسقطت منزلة المرأة ، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق ، وخوف الفقر والإملاق .

---

(١) غاصت ، ودخلت .

وأغرموا بالحرب ، وهانت عليهم إراقة الدماء ، فتثيرها حادثة تافهة ، وتدوم الحرب أربعين سنة ، ويقتل فيها ألوف من الناس .

ظهر الفساد في البر والبحر

وبالجملة فقد كانت الإنسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار ، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه ، ويعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

[الروم : ٤١]

لماذا بُعث النبي في جزيرة العرب ؟

وقد اختار الله العرب ، ليتلقوا دعوة الإسلام ، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم ؛ لأن ألواح قلوبهم كانت صافية ، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة ، يصعب محوها وإزالتها ، شأن الروم والفرس وأهل الهند ، الذين كانوا يتيهون [١] بعلومهم وآدابهم الراقية ، ومدنياتهم الزاهية [٢] ، أما العرب فلم تكن ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة ، ومن السهل الميسور محوها وغسلها ، ورسم نقوش جديدة مكانها .

وكانوا على الفطرة ، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه ، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم أحبوه واحتضنوه ، واستماتوا في سبيله ، وكانوا أصحاب صدق وأمانة ، وجلادة وتقشف في الحياة ، وشجاعة وفروسية .

---

(١) النضرة المشرقة .

(٢) يتكبرون .

وفي جزيرة العرب وفي مكة كانت الكعبة التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ليعبد فيها الله وحده، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد.

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦].

*****

قبل البعثة

مكة وقريش

قصد سيدنا إبراهيم مكة ، وهي في واد محصور بين جبال جرداء ليس فيه ما يعيش عليه الناس ، من ماء وزرع وميرة [١] ، ومعه زوجه هاجر وولده إسماعيل ، فراراً من الوثنية المنتشرة في العالم ، ورغبة في تأسيس مركز يعبد فيه الله وحده ويدعو الناس إليه ويكون مناراً للهدى ومثابة للناس .

تقبل الله هذا العمل ، وبارك في هذا المكان ، وأجرى الله الماء لهذه الأسرة المباركة الصغيرة المؤلفة منْ أم وابن ـ وقد تركهما إبراهيم في هذا المكان القاحل [٢] المنعزل عن العالم ـ وكان بئر «زمزم» وبارك الله في هذا الماء فلا يزال الناس يشربون منه ويحملونه إلى أنحاء العالم .

ونشأ إسماعيل ، وأراد إبراهيم ذبح ابنه إسماعيل ، وهو غلام يسعى ، إيثاراً لحب الله تعالى على حبه ، وتحقيقا لما رآه في المنام ، واستسلم إسماعيل لهذا الأمر ، ورضي به ، وفداه الله بذبح عظيم ليكون عون أبيه في الدعوة إلى الله ، وليكون جد آخر نبي وأفضل رسول .

وعاد إبراهيم إلى مكة ، واشترك الأب والابن في بناء بيت الله ، وكان دعاؤهما أن يتقبل الله هذا البيت ، ويبارك فيه ، وأن يعيشا على الإسلام ، ويموتا عليه ، ولا ينقطع بموتهما ، وأن يبعث الله نبياً من ذريتهما يجدد دعوة جده إبراهيم ويُتم ما بدأه .

---

(١) الطعام الذي يدخره الإنسان .

(٢) اليابس .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٦، ١٢٩] .

وبارك الله في ذريتهما ، وتوسعت الأسرة ، وكثر أولاد عدنان ، وهو من أحفاد إسماعيل عليه السلام ، ونبغ في ذريته فهر بن مالك ، ومن أولاده قصي ابن كلاب ، وقد ولي البيت وأمر مكة ، وكان سيدًا مطاعا ، كانت إليه حجابة البيت ، وعنده مفاتيحه ، وسقاية زمزم ، والرفادة ، [١] والندوة التي يجتمعون فيها للمشهورة والرأي ، واللواء [٢] في الحرب فحاز شرف مكة كله .

وتنبل [٣] في أولاده عبد مناف ، وكان هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف وكان كبير قومه ، وكانت عنده الرفادة والسقاية ، وهو والد عبد المطلب : جد الرسول ﷺ ، وقد ولي السياقة والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف ، وشرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه.

وسمي أولاد فهو بن مالك «قريشاً» ، وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ «قريش» وأقر أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش ، والسيادة ، وفصاحة اللغة ، ونصاعة[٤] البيان وكرم الأخلاق ، والشجاعة ، وصار ذلك مثلا ، لا يقبل نقاشاً ولا جدلا .

---

(١) الرفادة : طعام ، كانت قريش تجمع كل عام لأهل الموسم ويقولون : هم أضياف الله تعالى .

(٢) العلم دون الراية .

(٣) كان ذا نبل وذكاء وشرف .

(٤) صفاء ووضوح .

ظهور الوثنية في مكة وقريش

وبقيت قريش متمسكة بدين إبراهيم الخليل ، وبدين جدها إسماعيل ، متمسكة بعقيدة التوحيد ، وبعبادة الله وحده ، حتى نشأ فيهم عمرو بن لحي ، فكان أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وأحدث في الحيوانات من التعظيم والتسييب [1] والتحريم مالم يأذن به الله ، ولم تعرفه شريعة إبراهيم ، وكان قد خرج من مكة إلى الشام ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، ففتن بها ، وجلب بعضها إلى مكة ، فنصبها ، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها .

وتدرج بعضهم من تعظيم حجارة الحرم التي كانوا يحملونها معهم إذا ظعنوا [2] من مكة تعظيماً للحرم ، ومحافظة على ذكراه ، إلى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم .

حادثة الفيل

ووقع حادث عظيم ، كان دليلا على ظهور حادث أكبر ، وعلى أن الله يريد بالعرب خيراً ، وأن للكعبة شأناً ليس لغيرها من بيوت الدنيا .

وكان من خبره أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي [ملك الحبشة] على اليمن بنى بـ «صنعاء» كنيسة عظيمة ، سماها «القُلّيس» ، وأراد أن يصرف إليها حج العرب وغار على الكعبة أن تكون مثابة للناس ، يشدون إليها الرحال ، ويأتون إليها من كل فج عميق وأراد أن تكون هذه المكانة لكنيسته .

وعز ذلك على العرب الذين رُضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها لا يعدلون بها بيتا ، ولا يرون عنها بديلا ، وشغلهم ذلك ، وتحدثوا به ، فخرج كناني ، ودخل الكنيسة وأحدث فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن

(١) التسييب هو نذر للآلهة فُتترك ولا تركب .

(٢) رحلوا .

إلى البيت حتى يهدمه .

ثم سار وخرج معه بالفيل ، وتسامعت به العرب ، فنزل عليهم كالصاعقة ، وأعظموه وفزعوا له ، وأرادوا كفه عن ذلك ومحاربته ، فرأوا أن لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده ، فوكلوا الأمر إلى الله تعالى ، وكانوا على ثقة بأن للبيت رباً سيحميه ، يدل على ذلك ما دار بين سيد قريش ـ عبد المطلب ، جد الرسول ﷺ ـ وأبرهة ، من حوار ، وقد أصاب له أبرهة مأتى بعير ، فاستؤذن له عليه ، وقد أعظمه أبرهة ، ونزل له عن سريره ، فأجلسه معه ، وسأله عن حاجته ، فقال : حاجتي أن يرد على الملك مأتى بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك ، زهد فيه الملك واستهان به ، وقال : أتكلمني في مأتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟ .

قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربًّا سيمنعه .

قال : ما كان ليمنع مني .

قال : أنت وذاك .

وانحازت [١] قريش إلى شعف [٢] الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة [٣] الجيش ، ينظرون ماذا سيصنع الله بمن اعتدى على حرمته ، وقام عبد المطلب ومعه نفر من قريش ، فأخذوا بحلقة باب الكعبة ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنوده .

---

(١) لجأت وأوت .

(٢) جمع شعفة : رأس الجبل .

(٣) معرة الجيش أن ينزلوا بقوم فيأكلوا من زرعهم شيئا بغير علم ، أو يحدثوا تلفا .

وأصبح أبرهة متهيئا لدخول مكة ، وهو مجمع لهدم البيت ، وهيأ فيله ، وكان اسم الفيل «محمودا» وبرك الفيل في طريق مكة ، وضربوا الفيل ليقوم ، فأبى ، ووجهوه راجعاً إلى اليمين فقام يهرول .

هناك أرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر ، مع كل طائر منها أحجار يحملها ، لا تصيب منه أحداً إلا هلك ، وخرج أهل الحبشة هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا ، وخرجوا يتساقطون بكل طريق ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، تسقط أنامله أنملة أنملة ، حتى قدموا به «صنعاء» فمات شر ميتة .

وذلك ما حكاه القرآن يقول : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ [1] ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ [2] ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ [3] مَّأْكُولٍۭ ﴾ [الفيل : ١ ، ٥] .

فلما رد الله الحبشة من مكة ، وأصابهم ما أصاب ، أعظمت العرب قريشا ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم . وكفاهم العدو .

واستعظم العرب هذا الحادث ، وكان جديراً بذلك ، فأرخوا به ، وقالوا : وقع هذا في عام الفيل ، وولد فلان في عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين ، وعام الفيل يصادف سنة ٥٧٠م .

عبد الله وآمنة

وكان لعبد المطلب ـ سيد قريش ـ عشرة أبناء ، وعبد الله واسطة العقد ، وزوجه أبوه «آمنة» بنت وهب سيد بني زهرة ، وهي يومئذ أفضل امرأة في

(١) الأبابيل : الجماعات .

(٢) السجّيل : الشديد الصلب .

(٣) ورق الزرع .

قريش نسبا وموضعاً .

ولم يلبث عبد الله أن مات ـ وأم رسول الهﷺ ـ حامل به ـ وقد رأت من الآثار والآيات ما يدل أن لابنها شأناً .

ولادته الكريمة ونسبه الزكي :

وولد رسول اللهﷺ ، يوم الاثنين ، اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، عام الفيل (٥٧٠ المسيحي) ، فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضير بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معدّ بن عدنان ، وينتهي نسب عدنان إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فلما وضعته أمه ﷺ أرسلت إلى جده : عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأتاه ، فنظر إليه ، وحمله ، ودخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ، ويحمده ، وسمّاه محمدًّا ، وكان هذا الاسم غريباً ، فتعجّب منه العرب .

رضاعته ﷺ :

والتمس عبد المطلب لحفيده اليتيم ، الذي كان أحب أولاده إليه مرضعاً من البادية على عادة العرب ، وأدركت حليمةَ السعديّةَ هذه السعادةُ ، وكانت خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء وكان العام عام جدب ، وهم في ضيق وشدة ، وعرض رسول الله ﷺ على جميع المراضع فزهدن فيه ؛ وذلك لأنهن كن يرجون المعروف من أبي الصبيّ ، يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجدّه ؟ .

وهكذا فعلت حليمة ، فانصرفت عنه أول مرة ، ثم انعطف قلبها عليه ، وألهمها الله حبه ، وأخَذَه ، ولم تكن وجدت غيره ، فرجعت إليه فأخذته ،

وذهبت به إلى رحلها ولمست البركة بيدها ، فكان لكل شيء في رحلها شأن غير الشأن ، ورأت البركة في اللبان [١] والألبان [٢] ، والشارف [٣] والأتان [٤] ، وكل يقول : لقد أخذت يا حليمة نسمة مباركة ، وحسدتها صواحبها .

ولم تزل تتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتان في بني سعد ، وفصلته ، وكان يشب شاباً لا يشبه الغلمان ، وقدمت به ﷺ ، على أمه ، وطلبت أن تتركه عندها بعض الوقت ، فردّته إليها .

وجاءه ملكان ، وهو في بني سعد ، فشقا بطنه ، واستخرجا من قلبه علقة سوداء ، فطرحاها ، ثم غسلا قلبه ، حتى أنقياه ، وردّاه كما كان .

ورعى رسول الله ﷺ الغنم مع إخوته من الرضاعة ، ونشأ على البساطة والفطرة ، وحياة البادية السليمة ، واللغة الفصيحة ، التي اشتهر بها بنو سعد ابن بكر ، وكان أليفاً ودودا ، أحبه أخوته وأحبهم .

ثم عاد إلى أمه وجده ، وقد أنبتَهُ الله نباتاً حسنا .

وفاة آمنة وعبد المطلب :

فلما بلغ ست سنين ، توفيت آمنة بـ « الأبواء » بين مكة والمدينة ، فكان مع جده ، وكان به حفيًّا ، يجلسه على فراشه في ظل الكعبة ويلاطفه .

فلما بلغ رسول ﷺ ثماني سنين مات عبد المطلب .

مع عمه أبي طالب :

فكان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب ، وهو أخو عبد الله

---

(١) اللبان بفتح اللام : الصدر أو ما بين الثديين .

(٢) جمع لبن .

(٣) الناقة المسنة الهرمة ، ج شرف بضم الأول وفتح الثاني مع التشديد .

(٤) الحمارة ، ج أتن بضمتين .

من أب وأم ، وكان عبد المطلب يوصيه به ، فكان إليه ومعه ، وكان أرفق به وأكثر حدباً [١] عليه من أبنائه .

التربية الإلهية :

وشب رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى ، بعيداً من أقذار الجاهلية وعاداتها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والبذاءة ، حتى ما أسموه في قومه إلاّ « الأمين » وكان واصلا للرحم ، حاملا لما يثقل كواهل الناس ، مكرماً للضيف ، عوناً على البر والتقوى ، وكان يأكل من نتيجة عمله ، ويقنع بالقوت .

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش وبين قيس ، وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامه ، وكان ينبل [٢] على أعمامه وبذلك عرف الحرب ، وعرف الفروسية والفتوة .

زواجه ﷺ من خديجة :

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة ، تزّوج خديجة بنت خويلد [٣] وهي من سيدات قريش وفضليات النساء ، رجاحة عقل ، وكرم أخلاق ، وسعة مال ، وكانت أرملة ، توفي زوجها أبو هالة ، وكانت إذ ذاك في الأربعين من سنها ، ورسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره .

وكانت خديجة امرأة تاجره تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم [٤] بشيء

---

(١) عطفاً عليه .

(٢) ينبّل : يعني كان يردّ عليهم نبل عدوهم إذا ما رماهم بها .

(٣) خُويلد : بضم الأول وفتح الثاني ، وسكون الثالث وكسر الرابع .

(٤) المضاربة : هي أن تعطي مالا لمن يتجر فيه بسهم معلوم من الربح .

تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارا ، وقد كانت اختبرت صدق حديث رسول الله ﷺ وكرم أخلاقة ، ونصيحته ، حين خرج في مال لها إلى الشام تاجرا ، وبلغها من كبر شأنه في هذه الرحلة ، فعرضت عليه نفسها ، وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش ، وخطبها إليه عمه حمزة ، وخطب أبو طالب الخطبة ، فكان الزواج .

وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، وولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم .

قصة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة :

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وقد أرادوا ذلك ليسقفوها ، وكانت حجارة بعضها على بعض ، من غير طين يركب بعضها ببعض ، وكانت فوق القامة ، وكان لابد من هدم وبناء جديد .

فلما بلغ البنيان موضع الركن ، اختصموا في الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الآخر ، وكل قبيلة تريد أن يكون لها هذا الشرف ، حتى آل الأمر إلي الحرب ، وكانت في أهون من هذا بكثير في الجاهلية .

وأعدّوا للقتال ، وقرّبت بنو عبد الدار [١] جفنة [٢] مملوءة دما ، وتعاقدوا هم وبنو عديّ على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم تلك الجفنة .

وكانت آية الموت والبشر ، ومكثت قريش على ذلك أياما ، **ثم اتفقوا على** أن أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينهم ، **فكان أول داخل عليهم** رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، **هذا محمد .**

---

(١) قبيلة من قبائل قريش .

(٢) القصعة الكبيرة .

ودعا رسول الله ﷺ بثوب ، وأخذ الحجر ، ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه .

وهكذا درأ [١] رسول الله ﷺ الحرب عن قريش ، بحكمة ليست فوقها حكمة .

حلف الفضول :

وشهد رسول الله ﷺ حلف الفضول ، وكان أكرم حلف سمع به ، وأشرفه في العرب ، وكانت سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ، ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى [٢] عليه الزبيدى أشراف قريش ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل لمكانته ، وانتهروه ، واستغاث الزبيدى أهل مكة ، واستعان بكل ذوى مروءة .

وهاجت الغيرة في رجال من ذوى المروءة والفتوة ، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدعان ، فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا بالله ، ليكونَنَّ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي إليه حقه ، فسمّت العرب ذلك الحلف « حلف الفضول » وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه .

وكان رسول الله ﷺ مغتبطاً بهذا الحلف ، متمسكاً به ، حتى بعد البعثة يقول : « **لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردّوا الفضول على أهلها، وأن لا يعزّ [٣] ظالم مظلوما** » .

---

(١) دفع .

(٢) استعان بهم واستنصرهم .

(٣) يغلب .

وكان من حكمة الله تعالى وتربيته أن نشأ رسول الله ﷺ أميا ، لا يقرأ ولا يكتب ، فكان أبعد عن تهمة الأعداء وظنة المغتربين ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

[العنكبوت:١٨]

وقد لقبه القرآن بالأميّ فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

*****

بعد البعثة

تباشير الصبح وطلائع السعادة :

وأتم رسول الله ﷺ أربعين سنة من عمره ، وظهرت تباشير [١] الصبح وطلائع السعادة ، وآن أوان البعثة ، وتلك سنة الله إذا اشتد الظلام وطالت الشقوة .

وبلغ قلق رسول الله ﷺ مما كان يراه ذروتَه ، كأن حادياً يحدوه ، فحُبّب إليه الخلاء ، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده ، وكان يخرج من مكة ، ويبعد حتى تحسر [٢] عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة وبطونها وأوديتها ، فلا يمرّ بحجر ولا شجر إلاّ قال : السلام عليك يا رسول الله ، ويلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى إلا الشجر والحجارة .

وكان أول ما بدئ به الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح [٣] .

في غار حراء :

وكان يخلو غالباً بغار حراء ، فيمكث فيها ليالي متواليات ، وكان يتزوّد لذلك ، وكان يتعبد ويدعو على الطريقة الإبراهيمية الحنيفية والفطرة السليمة المنيبة إلى الله .

مبعثه ﷺ

وكان كذلك في إحدى المرات إذ جاءه اليوم الموعود لبعثته ، وكان ذلك في

(١) أوائل كل شيء .

(٢) تتوارى .

(٣) ضوء الصبح .

رمضان ـ ١٧ من رمضان في السنة الحادية والأربعين من ميلاده ، ٦/ أغسطس ٦١٠م ـ «حراء» فجاءه الملك ، فقال : «اقرأ» ، فقال : ما أنا قارئ ، قال رسول الله ﷺ : فأخذني ، فغطّني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : «اقرأ» فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : «اقرأ» فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق : ١ ـ ٥] .

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة ، وأول وحي من القرآن .

في بيت خديجة :

وفزع منه رسول الله ﷺ ، فإنه لم يعهده ولم يسمع به ، وقد طالت الفترة ، وعهُد العرب بالنبوة والأنبياء بعيد ، وخاف على نفسه ، ورجع إلى بيته ترتعد فرائصه [1] ، وقال : زمّلوني [2] ، زمّلوني ، لقد خشيت على نفسي .

وسألت خديجة عن السبب ، فقصّ عليها القصة ، وكانت عاقلة فاضلة ، سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة ، وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصّر ، وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة .

وكانت من أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ ، لمكانتها منه ، وعشرتها له ، وإطلاعها عليه في السرّ والعلانية ، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ وشمائله ما يؤكد أنه الرجل المُوَفَّق المؤيّد من الله ، المصطفى من خلقه ، المرضى في سيرته

---

(١) فرائض : جمع فريضة ، وهي اللحمة التي بين الجنب والكتف ، ترتعش وترتعد عند الفزع .

(٢) أي لفّوني في الثياب .

وسلوكه وأن من كانت هذه أخلاقه وسيرته ، لا يخاف عليه من لمة [١] من الشطان ، أو أن يكون به مسّ من الجنّ ، وأن ذلك يتنافى مع ما عرفته من حكمة الله ورأفته وسننه في خلقه ، فقالت في ثقة وإيمان وفي قوة وتأكيد :

«كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل [٢] ، وتكسب المعدوم [٣] ، وتقوى [٤] المضيف وتعين على نوائب الحق» .

بين يدي ورقة بن نوفل

ورأت أن تستعين في ذلك بابن عمها العالم «ورقة» بن نوفل ، فانطلقت برسول الله ﷺ إليه .

وأخبر رسول الله ﷺ ورقة خبر ما رأى ، فقال ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر [٥] الذي جاء موسى ، وإن قومك سيكذبونك ، ويؤذونك ، ويخرجونك ، ويقاتلونك .

وتعجب رسول الله ﷺ حين قال ورقة : إنهم سيخرجونك ؛ لأنه كان يعرف منزلته عند قريش ، فلا ينادونه ولا يخاطبونه إلا بـ «الصادق» و بـ «الأمين» فقال متعجباً : أو مخرجي هم ؟ .

قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به ، إلا عاداه الناس وحاربوه ، وإن أدركت ذلك اليوم ، وطالت بي الحياة ، نصرتك نصراً قويا .

---

(١) هي الهمة والخطرة تقع في القلب .

(٢) الكلّ : الثقل .

(٣) أي تكسب الناس ما يعدمونه مما يحتاجون إليه .

(٤) أي تهيئ له طعامه ونزله .

(٥) الناموس في الأصل صاحب سرّ الرجل في خيره وشره ، فعبّر به عن الملك الموكل بالوحي ، الذي جاء بالوحي إليه ج .

وفتر الوحي زمانا ، ثم تتابع ، وبدأ القرآن ينزل .

إسلام خديجة وأخلاقها

وآمنت به خديجة ، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وكانت بجواره تؤازره [١] ، وتثبّته ، وتخفف عنه ، وتهّون عليه أمر الناس .

إسلام علي بن أبي طالب وزيد بن حارثة

ثم أسلم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو يومئذ ابن عشر سنين ، وكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام ، أخذه من أبي طالب في أيام الضائقة [٢] ، وضمّه إليه .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وكان قد تبنّاه رسول الله ﷺ فكان إسلام هؤلاء شهادة أقرب الناس إليه ، وأعرفهم به ، وبصدقه ، وإخلاصه ، وحسن سيرته ، وأهلُ البيت أدرى بما فيه .

إسلام أبي بكر بن أبي قحافة وفضله في الدعوة إلى الإسلام

وأسلم أبو بكر بن أبي قحافة ، وكانت له منزلة في قريش ، لعقله ومروءته واعتداله ، وأظهر إسلامه ، وقد كان رجلاً محببًا سهلا ، عالماً بأنساب قريش وبأخبارها ، وكان تاجرا ، ذا خلق ومعروف ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ، ممن يغشاه [٣] ويجلس إليه .

إسلام أشراف من قريش

وأسلم بدعوته أشراف من قريش ، لهم مكانة وسؤدد ، منهم عثمان بن عفان ، وزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ،

---

(١) تعاونه .

(٢) الشدة والقحط .

(٣) يأتي إليه .

وطلحة بن عبيد الله ، فجاء بهم أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فأسلموا .

وتلاهم رجال من قريش ، لهم شرف ومكانة ، منهم : أبو عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد بن زيد ، وخباب بن الأرت ، وعبد الله بن مسعود ، وعمار ابن ياسر ، وصهيب ، وغيرهم ، رضي الله عنهم .

ودخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتُحدث به .

الدعوة جاهرا على جبل «الصفا»

وكان رسول الله ﷺ يخفي أمره ، ومضى على ذلك ثلاث سنين ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه ، وقال : ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] ، وقال : ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٤١ ، ٢١٥] ، و ﴿ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحجر : ٨٩] .

فخرج ﷺ وصعد على جبل «الصفا» ، ونادى بأعلى صوته : «يا صباحاه» ، وكانت صحية معروفة مألوفة ، كلما أحسّ إنسان بخطر عدوّ ، يغير على بلد ، أو على قبيلة ، على غفلة منها نادى : «يا صباحاه» ، فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء ، واجتمعوا إليه ، بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث إليه رسوله .

فقال رسول الله ﷺ : « **يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني**» .

كان العرب واقعيين عمليين ، أنهم رأوا رجلا جرّبوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر إلى ما وراءه ،

وهم لا يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم ذكاؤهم وإنصافهم إلى تصديق هذا المخبر الأمين الصادق ، فقالوا : نعم ، هنالك قال رسول الله ﷺ : «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» .

فسكت القوم ، ولكن أبا لهب قال : تبًّا [١] لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلاّ لهذا ؟ .

إظهار قومه العداوة له وحدب أبي طالب عليه

ولما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة الإسلامية ، وصدع الحق كما أمره الله تعالى ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل لك ، أعظموه وأجمعوا خلافه وعداوته .

وحدب على رسول الله ﷺ عمّه أبو طالب ، ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ في دعوته وصدعه بالحق ، لا يرده عنه شيء ، ومضى أبو طالب يحدب عليه ، ويذود [٢] عنه .

فلما طال ذلك ، مشى رجال من قريش إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا وإما أن تخلّي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه ، من دين وعقيدة .

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقا ، وردهم رداً جميلا ، فانصرفوا عنه .

بين رسول الله ﷺ وأبي طالب

وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ وحضّ بعضهم بعضاً عليه ، ومشوا إلى

---

(١) هلاكاً لك وخسرانا .

(٢) يدفع عنه الأذى .

أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا : يا أبا طالب ! إن لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد رجوناك أن تنهي ابن أخيك ، فلم تفعل ، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا ، على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، فإما تكفّه عنا ، أو إما أن ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ، فبعث إلى رسول الله ﷺ .

فقال له : يا بن أخي ! إن قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي : كذا وكذا ، فابق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري :

وظن رسول الله ﷺ أن أبا طالب قد اضطرب في أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه .

فقال : « **يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته** » .

واستعبر [١] رسول الله ﷺ فبكى ، ثم قام .

فلما ولّى ، ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا بن أخي ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : اذهب يا بن أخي ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا .

تعذيب قريش للمسلمين :

ومضى رسول الله ﷺ يدعو إلى الله ، ويئست قريش منه ، ومن أبي طالب ، ونزل غضبهم على من كان أسلم من أبناء قبائلهم ، وليس لهم من يمنعهم .

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ،

---

(١) أي دمعت عين رسول الله ﷺ .

ويعذبونهم ، بالضرب ، والجوع ، والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتدّ الحر .

وكان بلال الحبشي ـ وقد أسلم ـ يخرجه مولاه «أمية بن خلف» ، إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله ، لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيقول ـ وهو في ذلك البلاء : أَحَدٌ ، أَحَدٌ.

فمرّ به أبو بكر الصديق ﷺ فأعطى أمية غلاماً أسود ، أجلد منه وأقوى ، وأخذ منه بلالا ، وأعتقه .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمّار بن ياسر وبأبيه وأمه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حَميت الظهيرة ، يعذبوهم برمضاء[1] مكة ، فيمر بهم رسول الله ﷺ ـ ويقول : «**صبراً يا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة**» ، فأما أمه فقتلوها ، وهي تأبى إلا الإسلام .

وكان مصعب بن عمير فتى مكة شباباً وجمالا وتيها ، وكانت أمه غنية كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب .

وبلغ مصعب بن عمير أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام ، في دار «الأرقم» ابن أبي الأرقم ، فدخل عليه ، فأسلم وصدّق به ، فخرج ، فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه ، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سرًّا ، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي ، فأخبر أمه وقومه ، فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل محبوسا ، حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين ، حين رجعوا ، فرجع متغيراً الحال قد حرج ـ يعني غلظ ـ فكفّت أمه عنه من العذل .

وكان بعض المسلمين قد دخل في جوار بعض المشركين ، من أشراف

---

(١) الرمل الشديد الحر .

قريش ورؤسائهم وكانوا يمنعونهم ، ويحمونهم ، وكان عثمان بن مظعون قد دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، ثم أبت غيرته ذلك ، فردّ عليه جواره ، وكان وفيًّا كريم الجوار ، وقال : قد أحببت ألّا أستجير بغير الله ، ودار بينه وبن أحد المشركين حديث أغضب المشرك ، فقام إليه ولطم عينه ، فخضّرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ذلك ، فقال : أما والله يا بن أخي ! إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة ، قال عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر يا أبا عبد شمس !

محاربة قريش لرسول الله ﷺ وتفننهم في الإيذاء

فلما لم تلق قريش نجاحاً في صرف هؤلاء الفتيان الذين أسلموا ، عن دينهم ، ولم يلن رسول الله ﷺ ولم يحابهم ، اشتد عليهم ذلك ، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم ، فكذبوه ، وآذوه ، ورموه بالسحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وتفنّنوا في إيذاء رسول الله ﷺ وذهبوا فيه كل مذهب .

وكان أشرافهم مجتمعين يوماً في الحجر ، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ومر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، وعادوا بذلك ثلاث مرات ، فوقف ثم قال : **أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح** ، فأسكت القوم ، فلا حراك بهم ، وصاروا يلاطفونه بالقول .

فلما كان من الغد ، وهم في مقامهم ، طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ ! فانصرفوا عنه ، ورجع أبو بكر يومئذ ، وقد صدعوا فرق رأسه ، وقد جرَّوا لحيته .

وخرج رسول الله ﷺ يوماً فلم يلقه أحد من الناس ، إلا كذبه وآذاه ، لا حر ولا عبد ، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله ، فتدثر [١] من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه :

﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ﴾ .

ما فعل كفار قريش بأبي بكر ؟ !

وقام أبو بكر يوماً في الناس ، يدعو إلى الله وإلى رسوله ، وثار المشركون على أبي بكر ، فوطئ ، وضرب ضرباً شديدا ، وجعل عقبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين [٢] يحرّفهما لوجهه حتى ما يعرف وجهه من أنفه .

وحملت بنو تيم أبا بكر ، وهم لا يشكون في موته ، وتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله ﷺ فمسوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، ودنت منه أم جميل ، وهي ممن أسلم ، فسألهم عن رسول الله ﷺ فقالت : سالم صالح قال : فإن لله عليّ ألاّ أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على رسول الله ﷺ ، ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة ، فدعا رسول الله ﷺ لأمه ، ودعاها إلى الله ، فأسلمت .

احتيار قريش في وصف رسول الله ﷺ :

وحارت قريش في أمْر رسول الله ﷺ بماذا يصفونه ، وكيف يحولون بينه ، وبين من يقصده ، أو يستمع إليه ، من الوافدين من بعيد ، واجتمعوا إلى الوليد ابن المغيرة ـ وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ـ فقال لهم : يا معشر قريش !

---

(١) تدثر ، وادّثر (بالثوب) اشتمل وتلفف به .

(٢) حصف النعل : أي أطبق عليها مثلها وخرزها بالمخصف .

إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا ، ودار بينهم حديث طويل وأخذ وردّ .

ولم يرض الوليد بما عرضوه ، ونقضه ، فرجعوا إليه ، وقالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟ ، قال : إن أقرب القول فيه : لأن تقولوا : ساحر جاء بسحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذاك ، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس ، حين قدموا الموسم ، لا يمر أحد إلاّ حذّروه إياه ، وذكروا له أمره .

قسوة قريش في إيذاء رسول الله ﷺ ومبالغتهم في ذلك :

وتفنّنت قريش ، وقست في إيذاء رسول الله ﷺ ، فلم يرعوا فيه قرابة ولا رحما ، وتخطّوا حدود الإنسانية .

فبينا النبي ﷺ ساجد ـ ذات يوم ـ في المسجد ، وحوله ناس من قريش ، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا [١] جزور ، فقذفه على ظهر النبي ﷺ فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته «فاطمة» ـ عليها السلام ـ فأخذته من ظهره ، ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبي ﷺ .

وبينا هو ﷺ يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأخذ أبو بكر بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله ؟ !

(١) السلا : جلدة يكون ضمنها الولد في بطن أمه .

إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه

ومر أبو جهل برسول الله ﷺ ذات يوم ، عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ فانصرف عنه .

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوحشاً[1] قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان أعزّ فتى في قريش ، وأشد شكيمةً[2] ، فأخبرته مولاة عبد الله بن جدعان بما جرى لرسول الله ﷺ فاحتمل حمزة الغضب ، ودخل المسجد ورأى أبا جهل جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضرب بها ، فشجّه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ؟ أقول ما يقول ، فسكت أبو جهل ، وأسلم حمزة ، وعز ذلك على قريش ، لمكانته وشجاعته .

ما دار بين عتبة وبين رسول الله ﷺ

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، استأذن عتبة بن ربيعة قريشا ، أن يأتي رسول الله ﷺ فيكلمه ويعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها ، فيعطونها ، ويكف عنه ، وأذنت له قريش ، واستخلفته .

وجاء عتبة رسول الله ﷺ فجلس إليه ، وقال : يا بن أخي ! إنك منا حيث قد علمت ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبّت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها .

فقال رسول الله ﷺ : قل يا أبا الوليد ! أسمع .

---

(١) متقلدا .

(٢) أي : أنفةً وإباءً .

قال يا بن أخي : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا ، سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكا ، ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا [١] ، تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك ، طلبنا لك أطبّاء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فلما فرغ عتبة ، قال له رسول الله ﷺ : «أقد فرغت يا أبا الوليد ؟» .

قال : نعم .

قال : **«فاسمع منّي»** .

قال : افعل .

فقرأ رسول الله ﷺ آيات من سورة «فصّلت» إلى السجدة ، فلما سمع منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليها ، يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها ، سجد ، ثم قال :

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك» .

فقام عتبة على أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ ! ، قال : ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش ! أطيعوني ، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

---

(١) رئيا : ما يتراءى للإنسان من الجن .

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ، قال لهم : **لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا ، لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فَرَجاً مما أنتم فيه .**

فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الإسلام وكانوا عشرة رجال ، أمّروا عليهم عثمان بن مظعون رضي الله عنه .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، منهم من خرج بأهله ، ومنهم من خرج بنفسه ، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلا .

تعقب قريش للمسلمين :

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، بعثوا عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته [١] ، مما يُسْتَطرف [٢] من متاع مكة ، وقدما على النجاشي ، وقد استمالا البطارقة ، وأرضياهم بهداياهم وتكلما في مجلس الملك ، فقالا : إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بَعَثَنا إليك أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردّوهم إليهم ، فهم أبصر بهم ، وأقرب إليهم ، وقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما .

فغضب النجاشي ، وأبى أن يقبل كلامهم ، ويسلم من لجأ إليه وإلى بلاده ، وحلف بالله ، وأرسل إلى المسلمين فدعاهم ، ودعا أساقفته [٣] ، وقال

---

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو القائد الحاذق بالحرب .

(٢) يستطرف : يُعَدّ طريفا .

(٣) الأساقفة : علماء النصارى ، والواحد : الأسقف .

للمسلمين : ما هذا الدين الذي قد فارقتهم به دين قومكم ؟ ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟ .

تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية، وتعريفه بالإسلام:

وقام جعفر بن أبي طالب ـ وهو ابن عمّ رسول الله ﷺ فقال له : «أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبَه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فعدّد عليه أمور الإسلام ــ فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل «من الخبائث» .

«فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك» .

وسمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار ، ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟ .

قال جعفر : نعم .

قال النجاشي : فاقرأه عليّ .

فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي ، حتى اخضلّت [١] لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا [٢] مصاحفهم .

خيبة وفد قريش :

ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولَيْ قريش ، فقال : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكم .

وغدا عمرو بن العاص على النجاشي من الغد ، وقال له : أيها الملك ! أنهم ليقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيما ، فأقبل الملك على المسلمين ، فقال : ماذا تقولون في عيسى ابن مريم ؟

قال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه ما جاء به نبيناﷺ : هو عبد الله ، ورسوله ، وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء [٣] البتول [٤] ، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما زاد عيسى ابن مريم على ما قلت مقدارَ هذا العودِ .

ورد المسلمين رداً كريما ، وأمّنهم ، وخرجا من عنده مقبوحيْن .

إسلام عمر بن الخطاب :

وأيّد الله الإسلام والمسلمين ، بإسلام عمر بن الخطاب العدوىّ القرشيّ ،

---

(١) اخضلت : ابتلت .

(٢) بلّوا .

(٣) هي الجارية التي لم يمسّها رجل .

(٤) هي المنقطعة عن الرجال لا حاجة لها فيهم .

وكان رجلاً مهيباً ، ذا قوة وشكيمة ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إسلامه ، يدعو الله لذلك .

وكان من خبر إسلامه أن أخته «فاطمة» بنت الخطاب أسلمت ، وأسلم بعلها سيعد بن زيد ، وكان يخفيان إسلامهما ، من عمر ، لهيبته وشدته على الإسلام والمسلمين ، وكان خباب بن الأرث يختلف إلى فاطمة ، يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه ، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه ، قد ذُكِرَ له أنهم اجتمعوا في بيت عند الصفا ، فلقيه نُعَيم بن عبد الله ـ وهو من قومه بني عدي ، وكان قد أسلم ـ فقال له أين تريد يا عمر ؟ ، قال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذي فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها ، فأقلته .

فقال له النعيم : لقد غرّتك نفسك يا عمر ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ ، قال عمر : وأي أهل بيتي ؟ .

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطّاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندما خباب بن الأَرَت ، معه صحيفة ، فيها «طه» يقرئهما إيّاها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغّيب خباب في مخدع [١] لهم ، وأخذت فاطمة الصحيفة ، وجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءةَ خبابٍ ، فلما دخل ، قال : ما هذه الهيمنة [٢] ؟ ،

(١) المخدع : البيت الصغير الذي يكون في البيت الكبير .

(٢) الهينمة : صوت كلام لا يُفهم .

قالا له ما سمعت شيئا ، قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش عمر بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة ، لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجّها .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم قد أسْلَمْنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، وتوقّف ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفاً ، انظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر قارئاً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ، فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ! إنك نجس على شركك . وإنه لا يمسها إلا الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطّته الصحيفةَ ، وفيها «طه» فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلامَ وأكرمه ! .

فلما سمع ذلك خباب ، خرج إليه ، وقال له : يا عمر ! والله ، إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيَّه ، فإني سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (يعني أبا جهل) أو بعمر بن الخطاب ، فالله ، الله يا عمر .

عند ذلك قال له عر : فدُلَّني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم ، وقال خباب ، هو في بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ، فأخذ عمر سيفه ، فتوشّحه ، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خِلَل الباب ،

فرآه متوشحاً السيفَ ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزِعٌ ، فقال : يا رسول الله ! هذا عمر بن الخطاب ، متوشحاً السيف فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ ائذن له ، فأذن له الرجل.

ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته [1] ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال ما جاء بك يا بن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزِل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأؤمن بالله ، وبرسوله ، وبما جاء من عن الله .

قال : فكبّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم .

وعزّ المسلمون في أنفسهم ، حينما أسلم عمر ، وقد أسلم حمزة من قبل .

وأعلن عمر إسلامه ، وشاع ذلك في قريش ، وقاتلوه وقاتلهم ، حتى يئسوا منه .

مقاطعة قريش لبني هاشم والإضراب عنهم :

وجعل الإسلام يفشوا في القبائل ، فاجتمعت قريش ، وائتمروا بينهم ، أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه علي بني هاشم وبني عبد المطلب ، على ألّا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك ، كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا ، وتواثقوا على ذلك ، وعلّقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً على أنفسهم .

---

(١) الحجزة : موضع شدّ الإزار .

في شعب أبي طالب

فلما فعلت ذلك قريش ، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه ، وذلك في سنة سبع من النبوة .

وخرج من بني هاشم أبو لَهَب بن عبد المطلب ، وكان مع قريش .

وأقام بنو هاشم على ذلك حتى جُهِدُا من ضيق الحصار ، وأكلوا ورق السمر ، وأطفالهم يَتَضَاغَوْن [1] من الجوع ، حتى يُسمع بكاؤهم من بعيد ، وقريش تحول بينهم وبين التجار فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً ، حتى لا يشتروها .

ومكثوا على ذلك ثلاث سنوات ، لا يصل إليهم شيء ، إلاّ سرًّا ، ممن أراد صلتهم من قريش ، ورسول الله ﷺ على ذلك ، يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسرًّا وجهاراً ، وبنو هاشم صابرون محتسبون .

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة

وقام نفر من قريش ، من أهل المروءة والضمائر ، في مقدمتهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، فكرهوا هذا التعاقد الظالم ، وعافته نفوسهم ، وكان هشام رجلاً واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فمشى إلى رجال من قريش ، أنس فيهم الرقة والرجولة ، فاستشار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة ، والخروج من هذا التعاقد الظالم ، ولما كانوا خمسة ، اجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة ، فلما كانت قريش في أنديتها من غد ، قام زُهَيْر بن أبي أُمَيَّة ، وكانت أمه عَاتِكَةُ بنت عبد المطلب ، وأقبل على الناس .

قال : يا أهل مكة ! أنأكل الطعام ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكى ، لا

---

(١) يتضاغون : يتصوتون من الجوع .

يُبَاع ولا يُبْتَاع منهم ؟ ، والله لا أقعد حتى تُشَقَّ هذه الصحيفة الظالمة .

وتدخّل أبو جهل في الحديث فلم يُفِدْ ، وقام المُطْعِم بن عَدِيّ إلى الصحيفة ليَشُقّها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم» ، وكان النبي ﷺ قد أخبر بذلك أبا طالب ، ومُزّقت الصحيفة وبطل ما فيها .

وفاة أبي طالب وخديجة :

ومات أبو طالب وخديجة في عام واحد ـ العام العاشر من النبوة ـ وهما من عرفتم من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتأييد ، ولم يسلم أبو طالبَ ، وتَتَابَعَتْ على رسول الله ﷺ المصائبُ .

وقع القرآن في القلوب السليمة :

وفد الطفيل بن عمرو الدَّوْسِي مكة ، وكان رجلاً شريفاً ، شاعراً لبيباً ، فحالت قريش بينه وبين رسول الله ، وخوّفوه من الدنّو إليه ، وسماع كلامه ، وقالوا : إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تُكَلِّمَنَّه ولا تَسْمَعَنَّ منه شيئاً .

يقول الطفيل : والله ما زالوا بي حتى أجمعتُ ألا أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني قطناً ، وغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلاّ أن يُسمعنى بعضَ قوله ، قال فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي ، واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب ، شاعر ، ما يخفي عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً ، قبلته ، وإن كان قبيحاً ، تركته .

ودخل الطفيل على رسول الله ﷺ في بيته ، وحكى له القصةّ فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلامَ ، وتلا عليه القرآن ، فأسلم ، ورجع إلى قومه داعياً إلى

الإسلام ، وأبي أن يساكن أهله حتى يسلموا فدخلوا في الإسلام جميعاً ، ودعا دَوْساً إلى الإسلام ، وفشا الإسلام فيهم .

الخروج إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى

ولما مات أبو طالب ، نال رسول الله ﷺ من قريش من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه قريش في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

ولما اشتد أذى قريش ، وانصرافهم عن الإسلام ، وزهدُهم فيه ، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، وأن يدخلوا في الإسلام .

فلما قدم رسول الله ﷺ الطائف ، عمد إلى نفر ، منهم سادة ثقيف وأشرافهم ، فجلس إليهم ، ودعاهم إلى الله ، فكان ردّهم شَرَّ ردٍّ ، واستهزؤوا به ﷺ وأَغْرَوا به سفهاءهم وعبيدة ، يسبونه ، ويصيحون به ، ويرجمونه بالحجارة ، فعمد إلى ظل نخلة ، وهو مكروب ، فجلس فيه ، وكان ما لقي في الطائف أشدّ ما لقيه من المشركين ، وقعد له أهل الطائف صَفَّيْنِ على طريقة ؛ فلما مرّ ، جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلاّ رموهما بالحجارة ، حتى أَدْمَوه ، وهما تسيلان الدماء ، وفاض قلبه ولسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعفَ قوته ، وقلّةَ حيلته ، وهو أنه على الناس ، واستعاذ بالله تعالى وبنصره وتأييده فقال :

«اللهم ! إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجّهمني ؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري ؟ ، إن لم يكن بك غضب عليّ ، فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنْزل بي غضبك ، أو يحلّ عليّ سخطك ،

لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

فأرسل الله إليه ملك الجبال ، يستأذنه في أن يُطْبَق الجبلين اللذين بينهما الطائف ، فقال له رسول الله ﷺ **«بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»** .

ولما رآه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وما لقي ، تحرّكت لهما المروءة ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : عَدَّاس ، فقالا له : خذ قطفاً من العنب ، فضع في هذا الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل عدّاس وأسلم ، بما سمعه من حديث رسول الله ﷺ ورأى من أخلاقه .

وانصرف رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة ، وقومه على أشد ما كانوا عليه من خلاف وعداء ، وسخرية واستهزاء .

الإسراء والمعراج وفرض الصلوات :

ثم أُسْرِيَ برسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام ، فإلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى ما شاء الله من القرب والدنو ، والسير في السماوات ، ومشاهدة الآيات ، والاجتماع بالأنبياء :

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٧ ، ١٨] .

فكانت ضيافةً كريمةً من الله ، وتسليةً وجبراً للخاطر ، وتعويضاً عما لقيه في الطائف من الذلة والهوان .

فلما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فأنكروه ذلك ، واستعظموه ، وكذّبوه ، واستهزؤوا ، وأما أبو بكر ، فقال : والله لئن كان قاله ، لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فو الله ، إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى

الأرض في ساعة من ليل أو النهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه .

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاةً في كل يوم ، وما زال رسول الله يسأل التخفيف ، حتى جعلها الله خمس صلوات في كل يوم وليلة ، من أدّاهنّ إيماناً واحتساباً كان له أجر خمسين صلاة .

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل :

وبدأ رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى أن يمنعوه من الأعداء ، ويقول : يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا به ، وتصدقوا به ، وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به .

فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله قام أبو لهب ، فقال : يا بني فلان ! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللاَّت والعُزَّى ، من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه .

بدء إسلام الأنصار :

وخرج رسول الله ﷺ في الموسم ، فبينما هو عند العقبة ، إذ لقي رهطًا من الخزرج من الأنصار ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلامَ ، وتلا عليهم القرآنَ .

وكانوا جيرانَ اليهودِ في المدينة ، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبي قد أظل [(١)] زمانه ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلموا والله ، إنه للنبي الذي توعّدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه ، وصدقوه ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ،

---

(١) أظلّ : دنا وقرب .

ولا قوم ، بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رَجُلَ أعزُّ منك .

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وآمنوا ، وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ، ذكروا لإخوانهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيها ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .

بيعة العقبة الأولى :

حتى إذا كان العام المقبل ، وافي الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فالتقوا برسول الله ﷺ وبايعوه بالعقبة الأولى ، على التوحيد ، والتعفف من السّرقة والزنى وقتل الأولاد والطاعة في المعروف.

فلما هَمَّ القوم بالانصراف ، بعث رسول الله ﷺ معهم مُصْعَبَ بن عمير ، وأمره أن يُقَرِئَهم القرآن ، ويُعَلِّمهم الإسلامَ ، ويُفَقّههم في الدين ، فكان يسمّى «المقرئ» بالمدينة ، ونزل على أسعد بن زُرَارَةَ ، وكان يصلى بهم .

انتشار الإسلام في المدينة :

وجعل الإسلام يفشو في منازل الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ وأسلم سعد ابن معاذ وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وهما سيِّدا قومِهما ، من بني عبد الأَشْهَل من الأَوْس ، بحكمة من أسلم قبلهما ، وتلطفهم، وبحسن دعوة مصعب بن عُمَيْر ، وأسلم بنو عبد الأشهل عن آخرهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها رجال ونساء مسلمون .

بيعة العقبة الثانية :

ورجع مصعب بن عُمَيْر إلى مكة في العام القابل ، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم ، من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة ،

فواعدوا رسول الله ﷺ العقبةَ ، فلما فرغوا من الحج ، ومضى ثلث الليل ، اجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان من النساء ، وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العبّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه .

وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألاّ يدعهم ويرجع إلى قومه، فوعد بذلك رسول الله ﷺ فقال : أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم، واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيبًا [١] ، تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس .

الإذن بالهجرة إلى المدينة :

ولما بايع رسول الله ﷺ **هذا الحي من الأنصار على الإسلام** والنصرة له ، ولمن أتبعه، فأَوَى إليهم **عددٌ من المسلمين ، أمر رسول الله** ﷺ أصحابه ، ومن معه بمكة ، من المسلمين ، **بالخروج إلى المدينة ، والهجرة** إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، **وقال : إن الله عزّ وجلّ قد** جعل لكم إخوانًا ودارًا تأمنون بها ، فخرجوا **أرسالاً** [٢] .

وأقام رسول **الله** ﷺ بمكة **ينتظر الإذن من** الله في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

ولم تكن هجرة **المسلمين من مكة هينة سهلة** ، تسمع بها قريش وتطيب بها نفسًا ، بل كانوا **يضعون العراقيل في سبيل** الانتقال من مكة إلى المدينة ، ويمتحنون المهاجرين **بأنواع من المِحَن ، وكان** المهاجرون لا يعدلون عن هذه

(١) أظلّ : دنا وقرب .

(٢) أرسالاً : يعني جماعة في إثر جماعة .

الفكرة ، ولا يؤثرون البقاء في مكة ، فمنهم من كان يضطر إلى أن يترك امرأته وابنه في مكة ، ويسافر وحده ، كما فعل أبو سَلْمَة ، ومنهم من كان يضطر إلى أن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته ، وجمعه من ماله ، كما فعل صُهَيْبٌ .

وهاجر عمر بن الخطاب ، وطَلْحَةُ ، وحَمْزَة ، ويزيد بن حَارِثَة ، وعبد الرحمن بن عَوْف ، وزُبَيْر بن العَوّام ، وأبو حُذَيْفَة ، وعثمان بن عفان ، وآخرون ﷺ وتتابعت الهجرة ، ولم يتخلف مع رسول الله ﷺ بمكة - غير من حُبِس وفُتِن - إلا عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قُحافة ﷺ .

تآمر قريش على رسول الله ﷺ الأخير ، وخيبتهم فيما أرادوا :

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له أصحاب وأنصار في المدينة ، ولا سلطان لهم عليها، تخوّفوا من خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة وعرفوا أنّه إذا كان ذلك فلا حيلة لهم فيه ، ولا سبيل لهم عليه فاجتمعوا في «دار الندوة» ، وهي دار قُصَيّ بن كلاب ، وكانت قريش لا تقضي أمرًا إلا فيها ، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ واجتمع فيها أشراف قريش .

واجتمع رأيهم أخيرًا على أن يُؤخذ من كل قبيلة فتى شابٌ صاحب جلادة ونسب فَيُهاجموا رسول الله ﷺ ويضربوه ضربةَ رجل واحدٍ ، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعًا ، فلم يقدر بنو عبد مَنَاف على حرب قومهم جميعًا ، وتفرّق القوم على ذلك ، وهم مُجْمِعُون له .

وأخبر الله رسولَه ﷺ بهذه المؤامرة ، فأمر على بن أبي طالب أن ينام على فراشه متسجيًا [١] ببردته ، وقال : لن يخلص إليك شيء تكرهه .

واجتمع القوم على بابه وهم متهيئون للوثوب ، وخرج رسول الله ﷺ

---

(١) متسجيًا : متغطيًا .

وأخذ حفنة [(١)] من تراب في يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو آيات من سورة «يس» من أولها إلى قوله تعالى : ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩] .

وأتاهم آتٍ فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ ، قالوا : محمدًا ، قال : خيَّبكم الله ، قد والله خرج ، وانطلق لحاجته .

وتطلعوا ، أحدًا نائمًا على الفراش ، فلم يشكوا في أنه رسول الله ﷺ فلما أصبحوا ، قام عليّ رضي الله عنه عن الفراش ، فخجلوا ، وانقلبوا خائبين .

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة :

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ، فقال له : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله ، قال : الصحبة ، وبكى أبو بكر من الفرح ، وقدم أبو بكر راحلتين، كان قد أعدهما لهذا السفر ، واستأجر عبد الله بن أُريقط ، ليدلهما على الطريق ، وأمر رسول الله ﷺ عليًا رضي الله عنه بأن يتخلف بمكة ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده ، فليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لصدقه وأمانته .

في غار ثور :

وخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من مكة مستخفيين ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما بمكة ، وأمر عامر بن فُهَيْرة مولاه أن يرعى غنمه نهارًا ، ويريحها عليهما ليلاً ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام . وعمدًا إلى غار من ثور [(٢)] ، ودخل أبو بكر قبل رسول

---

(١) (بفتح الفاء وضمها وفتح النون) ملء الكفين .

(٢) ثور : جبل بأسفل مكة .

الله ﷺ فلمس الغار خوفًا من أن يكون فيه ما يؤذي رسول الله ﷺ ، ثم دعاه .

وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوت ، فنسجت ما بين الغار والشجر التي كانت على وجه الغار ، وسترت رسول الله ﷺ وأبا بكر ، وأمر الله حمامتين وحشيتين ، فأقبلتا تدفان [1] ، حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة ، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

واقتفى المشركون أثر رسول الله ﷺ فلما بلغوا الجبل ، اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه .

لا تحزن إن الله معنا :

وبينما هما في الغار ، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه ، رآنا ، قال : ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ وفي ذلك يقول القرآن : ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

ركوب سراقة في إثر الرسول ﷺ وما وقع له :

وجعلت قريش في رسول الله ﷺ حين فقدوه ، مائة ناقة ، لمن يرده عليهم ، ومكثا في الغار ثلاث ليال ، ثم انطلقا ، ومعهما عامر بن فهيرة ، ودليل من المشركين ، استأجره رسول الله ﷺ فأخذ بهم على طريق السواحل .

وحمل سُراقة بن مالك بن جُعْشَم الطمعُ على أن يتبع رسول الله ﷺ ويرده على قريش ، فيأخذ مائة ناقة منهم ، فركب على إثره يعدو ، وعثر به الفرس ، فسقط عنه ، فأبى إلا أن يتبعه ، فركب في إثره ، وعثر به الفرس مرة ثانية ،

---

(١) تحركان جناحيهما .

فسقط عنه ، وأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، فلما بدا له القوم ، ورآهم ، وعثر به الفرس مرة ثالثة ، وذهبت يداه في الأرض وسقط عنه ، وتبعهما دخان كالإعصار [1] .

وعرف سراقة حين رأى ذلك أنه رسول الله ﷺ في حماية الله تعالى ، وأنه ظاهر لا محالة ، فنادى القوم ، وقال : أنا سراقة بن جعشم ، انظروني أكلمكم ، فو الله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منا ؟ ، قال سراقة : تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك ، فكتب له عامر بن فهيرة كتابًا في عظم أو رقعة .

سوار كسرى في يد سراقة :

قال رسول الله ﷺ لسراقة : « **كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟** » .

وكان كذلك ، فلما أُتي عمر رضي الله عنه بسواري كسرى ومنطقته وتاجه ، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها .

وعرض عليه سراقة الزاد والمتاع ، فلم يقبله رسول الله ﷺ ولم يزد أن قال : أخف عنا .

رجل مبارك :

ومر في مسيرهما بأم معبد الخزاعية ، وكانت عندها شاة ، خلفها الجهد عن الغنم ، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمى الله ودعا ، فدرت ، فسقاها ، وسقى أصحابه ، حتى رووا ، ثم شرب ، وحلب فيه ثانيًا ، حتى ملأ الإناء ، فلما رجع أبو معبد ، سأل عن القصة ، فقالت : لا والله ، إلا أنه مر بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت وكيت ، ووصفته وصفًا جميلاً ، قال: والله إني لأراه

---

(١) الإعصار : ريح ترتفع بالتراب أو بمياه البحار مستديرة كأنها عمود .

صاحب قريش ، الذي تطلبه .

ولم يزل يسلك بهما الدليل ، حتى قدم بهما قباء ، وهي في ضواحي المدينة وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول ، يوم الاثنين ، فكان مبدأ التاريخ الإسلامي .

*****

في المدينة

كيف استقبلت المدينة رسول الله ﷺ ؟

وسمع الأنصار بخروج رسول الله ﷺ من مكة ، وهم ينتظرونه أكثر من انتظار الصائمين لهلال العيد ، وكانوا يخرجون كل يوم ، إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة ، ينتظرون رسول الله ﷺ فيما يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، فيدخلون بيوتهم ، وكان الزمن زمن صيف وحر .

وقدم رسول الله ﷺ حين دخل الناس البيوت ، وكان اليهود يرون ما يصنع الأنصار ، وكان أول من رآه رجل من اليهود ، فصرخ بأعلى صوته ، وأخبر الأنصار بقدوم رسول الله ، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر في مثل سنه ، وأكثرهم لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك ، وازدحم الناس ، ما يميزون بينه وبين أبي بكر ، وفطن لذلك أبو بكر ، فقام يظله بردائه ، فانكشف للناس الأمر .

وكبر المسلمون فرحًا بقدومه ، وما فرحوا لشيء في حياتهم كفرحهم بقدوم رسول الله ﷺ ، حتى كانت النساء والصبيان والإماء يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، وكانت بنات الأنصار ينشدون في سرور ونشوة :

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك الأنصاري ـ وهو غلام يومئذ : شهدت رسول الله

ﷺ يوم دخل المدينة، فما رأيت يومًا قط ، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا .

مسجد في قباء ، وأول جمعة في المدينة :

وأقام رسول الله ﷺ بقباء أربعة أيام ، وأسس مسجدًا هناك .

في بيت أبي أيوب الأنصاري :

وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة والناس يتلقونه في الطريق أرسالاً ، ويطلبون منه الإقامة عندهم ، ويمسكون بزمام الناقة ، فيقول : خلُّوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، ووقع ذلك مرارًا حتى إذا أتى دار بني مالك بن النجار ، بركت على مكان فيه باب المسجد النبوي اليوم ، وهو يومئذ مربد[١] لغلامين يتيمين من بني النجار ، وهم أخواله ﷺ .

ونزل رسول الله ﷺ عن الناقة ، فاحتمل أبو أيوب [خالد بن زيد النجاري الخزرجي] رحله ، فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله ﷺ فبالغ أبو أيوب في ضيافته وإكرامه ونزل في السفل من البيت وكره أبو أيوب وأعظم أن يكون في العلو ، فقال : يا أبا أيوب إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت .

بناء المسجد النبوي والمساكن :

ودعا رسول الله ﷺ الغلامين ، فساومهما بالمربد ، ليتخذه مسجدًا ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبةً ، حتى ابتاعه منهما ، ثم بناه مسجدًا .

وعمل رسول الله ﷺ في بناء المسجد ، فكان ينقل اللَّبِن[٢] ، واقتدى به

---

(١) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

(٢) اللبن جمع اللبنة ، أي المضروب من الطين مربعًا للبناء .

المسلمون ، وكان رسول الله ﷺ يقول :

« **اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة** » .

وكان المسلمون مسرورين سعداء ينشدون الشعر ، ويحمدون الله .

وأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر ، حتى بنى له مسجده ومساكنه ، فانتقل إلى مساكنه .

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد ، إلا مفتون ، أو محبوس ، ولم يبق دار من دور الأنصار ، إلا أسلم أهلها .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين ، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع ، وكانوا يحكمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم [1] ويؤثرونهم على أنفسهم .

وقد يقول الأنصاري للمهاجر : انظر شطر مالي فخذه ، ويقول المهاجر : بارك الله لك في أهلك ومالك ، ودلني على السوق ، فكان من الأنصار الإيثار ، ومن المهاجرين التعفف وعزة النفس .

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، وموادعة يهود :

وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بني المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم .

شرع الأذان :

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة ، واستحكم أمر الإسلام ، وكان الناس

---

(١) الكراع : يطلق على الخيل والبغال والحمير .

يجتمعون إليه للصلاة، في مواقيتها بغير دعوة ، وكره رسول الله ﷺ طرق الإعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس ونار ، وأكرم الله المسلمين بالأذان ، فأراه بعضهم في المنام ، فأقره رسول الله ﷺ وشرعه للمسلمين واختير بلال بن رباح الحبشي للأذان ، وكان مؤذن رسول الله ﷺ فكان إمام المؤذنين إلى يوم القيامة .

ظهور المنافقين في المدينة :

وجعل الإسلام ينتشر في المدينة ، وأسلم بعض أحبار اليهود وعلماؤهم ، كعبد الله بن سلام ، ودب الحسد إلى اليهود ، وإلى من كان يحلم بالرئاسة ، وأن يتوج ، فيأمر وينهى ولا ينازع في رئاسته ، كعبد الله ابن أبي بن سلول ، كان قد تم له كان ذلك إذ جاء الإسلام وصار الناس يدخلون فيه أفواجًا ، فحسدوه ، وعاداه كل من كان في قلبه مرض وفي السيادة طمع أو غرض ، وكان منهم أعداء مجاهرون ، ومنافقون مسرّون .

تحويل القبلة :

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس ومضى على ذلك ستة عشر شهرًا، بعدما قدم المدينة ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يُصْرَفَ إلى الكعبة ، وكان المسلمون العرب - وقد رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم - لا يعدلون بالكعبة بيتًا، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قبلةً ، وكانوا يحبون أن يصرفوا إلى الكعبة ، وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس ، محنة للمسلمين ولكنهم قالوا : «**سمعنا وأطعنا** » وقالوا : «**آمنا به ، كل من عند ربنا**» فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله ﷺ والخضوع لأوامر الله ، وافقت هواهم أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أو لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة ، ويقول القرآن :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وانصرف المسلمون إلى الكعبة مطيعين لله ولرسوله ، وصارت قبلة للمسلمين إلى يوم القيامة، أينما كانوا وَلَّوا وجوههم شطرها .

تحرش قريش بالمسلمين بالمدينة :

فلما استقر الإسلام بالمدينة ، وعرفت قريش أنه في نمو وازدهار ، وأن كل يوم يمضي يزيد في قوته وانتشاره ، هنالك شمروا [١] للمسلمين عن ساق العداوة والمحاربة والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح ويقول لهم «كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة » .

الإذن بالقتال :

فلما قويت الشوكة ، واشتد الجناح ، أذن لهم في القتال ، ولم يفرضه عليهم، فقال : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

[الحج:٣٩]

سرايا وغزوة أبواء :

وبدأ رسول الله ﷺ يبعث سرايا وبعوثًا إلى بعض القبائل والنواحي ، ولم تكن في غالب الأحيان حرب ، وقد تكون مناوشات [٢] ، وكانت تفيد إلقاء

---

(١) شمر الثوب على الساق ، رفعه عنها ، والمراد : اشتدوا في العداوة .

(٢) احتكاكات واصطدامات .

الرعب في قلوب المشركين ، وتظهر بها شوكة المسلمين ونشاطهم .

وغزا رسول الله ﷺ بنفسه غزوة «الأبواء» وهي أول غزوة غزاها بنفسه ، وتلتها غزوات وسرايا .

فرض صوم رمضان :

وفي السنة الثانية للهجرة فرض الصوم ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ .

[البقرة : ١٨٣]

وقال : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

*****

معركة بدر الحاسمة

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، وكانت غزوة بدر الكبرى ، وقد سمي الله هذه المعركة بيوم الفرقان ، فقال :

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ .

[الأنفال : ٤١]

وكان من خبر هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير [١] عظيمة لقريش ، فيها أموالهم وتجاراتهم ، وكانت الحرب قائمة بين المسلمين وبين قريش المشركين ، وكانت تبذل أموالها وكل ما تملكه ، في محاربة الإسلام ، وإضعاف شأن المسلمين ، وكانت كتائبهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها .

فلما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ، على رأس هذه العير ، وكان من أشد الناس عداوةً للإسلام ، ندب رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها ، ولم يحتفل لها احتفالاً بليغًا ؛ لأن الأمر أمر عير لا نفير .

وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه ، فأرسل إلى مكة مستصرخًا [٢] لقريش ليمنعوه من المسلمين ، وبلغ الصريخ أهل مكة ، فجد جدهم ونهضوا مسرعين ، ولم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب ، فإنه عوض عنه رجلاً .

---

(١) قافلة .

(٢) يعني مستنصرًا ومستغيثًا .

تجاوب الأنصار وتفانيهم في الطاعة :

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش ، استشار أصحابه ، وكان يعني الأنصار ، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم ، فلما عزم على الخروج من المدينة أراد أن يعلم ما عندهم ، فتكلم المهاجرون ، فأحسنوا ثم استشارهم ثانيًا ، فتكلموا أيضًا فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثًا ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ، كأنك تعرض بنا ، لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًا عليها ، ألَّا تنصرك إلا في ديارهم ، إني أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر ، فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان [1] ، لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر ، خضناه معك . وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة : ٢٤] ، ولكنا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

فلما سمع رسول الله ﷺ أشرق وجهه ، وسُرَّ بما سمع من أصحابه ، وقال : سيروا ، وأبشروا.

تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة :

ولما توجه المسلمون إلى بدر ، خرج غلام اسمه عمير بن أبي وقاص ، وهو في السادسة عشر من سنه ، وكان يخاف ألَّا يقبله النبي ﷺ لأنه صغير ، فكان

---

(١) وفي بعض الرواية برك الغماد وهو موضع بناحية اليمن .

يجتهد ألَّا يراه أحد ، وكان يتوارى ، وسأله أخوه الأكبر : سعد بن أبي وقاص عن ذلك ، فقال : أخاف أن يردني رسول الله ﷺ وأنا أحب الخروج ، لعل الله يرزقني الشهادة ، وكان كذلك ، فأراد رسول الله ﷺ أن يرده ؛ لأنه لم يبلغ الرجال ، فبكى عمير ، ورق له قلب رسول الله ﷺ فأجازه ، وقتل شهيدًا في الغزوة .

التفاوت بين المسلمين والكفار في العدد والعدد .

وخرج رسول الله ﷺ مسرعًا في ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان ، وسبعون بعيرًا ، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد لا فرق في ذلك بين جندي وقائد ، وتابع ومتبوع ، فكان منهم رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة .

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وراية المهاجرين إلى على بن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما سمع أبو سفيان خروج المسلمين ، خفض ولحق بساحل البحر ، ولما رأى أنه قد نجا وسلمت العير ، كتب إلى قريش أن ارجعوا ، فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا [1] عيركم ، وهموا بالرجوع ، فأبى أبو جهل إلا القتال ، وكانت قريش بين ألف وزيادة ، منهم صناديد قريش ، وسادتها ، وفرسانها ، وأبطالها ، فقال رسول الله ﷺ : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

وسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء شطر الليل ، وصنعوا الحياض ، وسمح رسول الله ﷺ لمن وردها من الكفار بالشرب .

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرًا ، كان على المشركين وابلاً شديدًا ،

---

(١) أي تصونوا وتحفظوا .

منعهم من التقدم ، وكان على المسلمين رحمةً وَطَّأ الأرض ، وصَلَّب الرمل ، وثبَّت الأقدام ، وربط على قلوبهم ، وهو قوله تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

[الأنفال : ١١]

استعداد للمعركة :

وبنى لرسول الله ﷺ عريش ، يكون فيها على تل مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان إن شاء الله - فما تعدى أحد منهم موضع إشارته .

ولما طلع المشركون ، وتراءى الجمعان ، قال رسول الله ﷺ : « **اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها ، جاءت تحاربك ، وتكذب رسولك** » وكانت ليلة الجمعة ، السابع عشر من رمضان ، فلما أصبحوا ، أقبلت قريش في كتائبها ، واصطف الفريقان .

دعاء وتضرع :

وعدل [١] رسول الله ﷺ الصفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر ، ورسول الله ﷺ يكثر الابتهال ، والتضرع والدعاء ، واستغاث بالله الذي لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه «وما النصر إلا من عند الله» ، فقال : « **اللهم إن تهلك هذه العصابة [٢] لا تعبد بعدها في الأرض**» ، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : «اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم نصرك » ، ويرفع يديه إلى السماء ، حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر رضي الله عنه يسليه ، ويشفق عليه من كثرة الابتهال.

---

(١) سوى .

(٢) العصابة : الجماعة .

هذان خصمان اختصموا في ربهم :

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم على القتال ، وخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ، فلما توسطوا بين الصفين ، طلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار ، فقالوا: من أنتم ؟

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : أكفاء كرام ، ولكن اخرجوا إلينا من بني عمنا .

قال النبي ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث [بن المطلب بن عبد مناف] وقم يا حمزة ، وقم يا علي .

قالوا : نعم ، أكفاء كرام .

وبارز عبيدة ـ وكان أسن القوم ـ عُتْبَةَ ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز علي الوليد ابن عتبة ، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا خصيميهما أن قتلاهما ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه، وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فأجهزا [1] عليه ، واحتملا عبيدة ، وهو جريح ، ومات شهيدًا.

التحام الفريقين ونشوب الحرب :

وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، ودنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : **« قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض »** .

أول قتيل :

وقام عمير بن الحمام الأنصاري ، فقال : يا رسول الله ﷺ جنة عرضها السماوات والأرض؟، قال : نعم ، قال بخ بخ يا رسول الله ، قال : ما يحملك على قولك : بخ بخ ؟ ، قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ،

---

(١) أجهزا عليه : أي شدا عليه وأتما قتله .

قال : فإنك من أهلها ، فأخرج تمرات من قرنه [١] ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن حييت حتى آكل من تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتل حتى قتل ، فكان أول قتيل .

والناس على مصافهم ، صابرون ذاكرون الله كثيرًا ، وقاتل رسول الله ﷺ قتالاً شديدًا ، وكان أقرب الناس من العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا ، ونزل الملائكة بالرحمة والنصر وقاتلوا المشركين .

مسابقة الإخوة الأشقاء في قتل أعداء الله ورسوله :

وتسابق الشباب في الشهادة ونيل السعادة ، وكانت مسابقة بين أخلاء وأصدقاء وإخوة أشقاء.

يقول عبد الرحمن بن عوف : «إني لفي الصف يوم بدر ، إذا التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن ، فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرًا من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل ، فقلت : يا بن أخي ما تصنع به ؟ ، قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه ، وقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله ، قال : فما سرني أني بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدا [٢] عليه مثل الصقرين ، حتى ضرباه . ولما قتل أبو جهل قال رسول الله ﷺ : « **هذا أبو جهل فرعون هذه الأمة** » .

الفتح المبين :

ولما أسفرت الحرب عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، قال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، وصدق الله العظيم :

---

(١) جعبته .

(٢) حملا عليه .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٢٣]

وأمر بالقتلى أن يطرحوا في القليب [١] ، فطرحوا فيه ، ووقف عليهم فقال : « **يا أهل القليب ، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقًا** » .

وقتل من سراة الكفار يوم بدر ، سبعون ، وأسر سبعون ، ومن المسلمين من قريش ستة ، ومن الأنصار ثمانية .

وفرق رسول الله ﷺ الأساري بين أصحابه ، وقال : استوصوا بهم خيرًا .

وقع معركة بدر :

وتوجه رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيدًا ، وقد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها ، وأسلم بشر كثير من أهل المدينة .

ووقعت النياحة في بيوت المشركين بمكة ، وكثر البكاء على القتلى ، ودخل الرعب في قلوب الأعداء .

تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى :

وعفا رسول الله ﷺ عن الأسرى وقبل منهم الفداء ، وكان من لا شيء له من عليه رسول الله ﷺ فأطلقه ، وبعثت قريش في فداء الأساري ، فأطلق سراحهم .

وكان من الأسرى من لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة ، وكان زيد بن ثابت ممن تعلم بهذا الطريق .

---

(١) القليب : البئر .

وكان بنو قينقاع أول يهود ، نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وحاربوه ، وآذوا المسلمين، فحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ، وشفع فيهم حليفهم عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين ، فأطلقهم له رسول الله ﷺ وكانوا سبع مائة مقاتل وكانوا صاغة وتجارًا .

*****

غزوة أحد

الحمية الجاهلية وأخذ الثأر :

لما أصيب صناديد قريش يوم بدر ، ورجع فُلُّهم إلى مكة ، عظم المصاب عليهم ، ومشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ، فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير تجارة، فاستعانوا بهذا المال على حرب المسلمين ، ففعلوا ، واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ وحرض الشعراء الناس بشعرهم ، وأثاروا فيهم الغيرة والحمية .

وخرجت قريش في منتصف شوال سنة ثلاث للهجرة بأبنائها ومن تابعها من القبائل ، وخرج سادة قريش بأزواجهم ، وأقبلوا حتى نزلوا مقابل المدينة .

وكان من رأي رسول الله ﷺ أن يقيم المسلمون بالمدينة ويدعوهم ، فإن دخلوا عليهم ، قاتلوهم فيها ، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج ، وكان رأى عبد الله بن أبي ما رأى رسول الله ﷺ فقال رجال من المسلمين ممن كان فاته بدر : **يا رسول الله ﷺ اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرونا أنا جبنا عنهم وضعفنا .**

فلم يزالوا برسول الله ﷺ حتى دخل رسول الله ﷺ بيته ، فلبس لأمته [١] ، وندم الذين اقترحوا الخروج ، فقالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد ـ صلى الله عليك ـ فقال رسول الله ﷺ : « **ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** » .

وخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه ، فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأحد ، انخزل [٢] عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس ، وقال : أطاعهم . وعصاني .

---

(١) درعه .

(٢) انفرد وانقطع .

في ميدان أحد :

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد ، وهو جبل على نحو ٣ كم من المدينة ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال ، وتعبأ [١] رسول الله ﷺ للقتال ، وهو في سبع مائة رجل ، وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهم خمسون رجلاً، فقال : ادفع الخيل عنا بالنبل ، لا يأتون من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، وأمرهم بأن يلزموا مركزهم ، وألَّا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر ، ولبس درعًا فوق درع ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ﷺ .

مسابقة بين أتراب :

ورد رسول الله ﷺ جماعة من الغلمان يوم أحد لصغرهم ، ورد رسول الله ﷺ سمرة بن جندب، ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وشفع أبو رافع لابنه ، وقال : يا رسول الله، إن ابني رافعًا رام ، فأجازه النبي ﷺ .

وعُرِض على رسول الله ﷺ سمرة بن جندب ، وهو في سن رافع ورده رسول الله ﷺ لصغره، فقال سمرة : لقد أجزت رافعًا ورددتني ، ولو صارعته لصرعته ، ووقعت المصارعة بينهما، فصرع سمرة رافعًا ، فأجيز ، وخرج وقاتل يوم أحد .

المعركة :

والتقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض وقامت هند بنت عتبة في النسوة ، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ، يحرضنهم ، واقتتل الناس ، حتى حميت [٢] الحرب ، وقاتل أبو دجانة الذي أخذ السيف من رسول الله ﷺ

---

(١) تهيأ .

(٢) اشتدت .

ووعده بأنه يأخذه بحقه، حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديدًا، وقتل عددًا من الأبطال، لا يقف أمامه شيء، وكان وحشي غلام جبير بن مطعم له بالمرصاد، وكان يقذف بحربة له قلما يخطئ لها شيئًا، ووعده جبير بالعتق إن قتل حمزة، وقد قتل عمه طُعَيْمَة يوم بدر، وكانت هند زوج أبي سفيان تحرضه كذلك على قتل حمزة وشفاء نفسها، وحمل وحشي على حمزة بحربته، فدفعها عليه، حتى خرجت من بين رجليه، فوقع شهيدًا .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل، وأبلى المسلمون بلاءً حسنًا .

غلبة المسلمين :

وأنزل الله ـ تعالى ـ نصره عليهم، وصدقهم وعده، حتى كشفوا المشركين عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، وولت النساء مشمرات هوارب .

كيف دارت الدائرة على المسلمين ؟

وبينما هم كذلك إذ انهزم المشركون، وولوا مدبرين، حتى انتهوا إلى نسائهم فلما رأى الرماة ذلك، مالوا إلى العسكر، وهم موقنون بالفتح، وقالوا : يا قوم، الغنيمة، الغنيمة، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، فأخلوا الثغر [١]، وخَلَّوْا ظهور المسلمين إلى الخيل، وأصيب أصحاب لواء المشركين، حتى ما يدنو منه أحد من القوم، فأتاهم المشركون من خلفهم، وصرخ صارخ : « ألا، إن محمدًا قد قتل »، فتراجع المسلمون، وكر المشركون كرة، وانتهزوا الفرصة، وكان يوم بلاء

(١) موضع المخافة من جانب العدوّ .

وتمحيص ، وخلص العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته الحجارة حتى وقع لشقه ، وأصيبت رباعيته ، وشج في وجهه ، وجرحت شفته ﷺ وجعل الدم يسيل على وجهه ، فيمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا[١] وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟

ولا يعلم المسلمون بمكانه ، فأخذ علي بن أبي طالب ﷺ بيد رسول الله ﷺ ورفعه طلحة بن عبيد الله ، حتى استوى قائمًا ، ومص مالك بن سنان الدم عن وجهه ﷺ وابتلعه .

ولم تكن فرّةً ، إنما كانت جولة يضطر إليها الجيش ، ثم يستأنف كرة .

وما أصاب المسلمين من نكسة ومحنة ، وما أصيبوا به من خسارة في النفوس ، وشهادة من كان قوة للإسلام والمسلمين ، وناصرًا لرسول الله ﷺ وللدين ، إنما كان نتيجة زلة للرماة ، وعدم تمسكهم بتعاليم الرسول ﷺ وأمره إلى اللحظة الأخيرة ، وإخلائهم للجبهة التي عينهم رسول الله ﷺ عليها وهو قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

روائع من الحب والفداء :

نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ ، فسقطت ثنيته ، ونزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين ،

---

(١) يعني أدموا .

وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ ، يقع النبل في ظهره ، وهو منحن عليه ، حتى كثر فيه النبل ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ ويناوله رسول الله ﷺ النبل ويقول : ارم فداك أبي وأمي .

وأصيبت عين قتادة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ بيده ، فكانت أحسنهما وأحَدَّهما ، وقصده المشركون ، يريدون ما يأباه الله ، فحال دونه نفر نحو عشرة ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وجالدهم طلحة بن عبيد الله ، ترس عليه بيده يقي بها رسول الله ﷺ فأصيبت أنامله ، وشلت يده ، وأراد رسول الله ﷺ أن يعلو صخرة هنالك ، فلم يستطع لما به من الجراح والضعف ، فجلس طلحة تحته ، حتى صعدها ، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسًا .

ولما انهزم الناس ، لم ينهزم أنس بن النضر - عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، وتقدم ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ، فقال أنس : واها لريح الجنة ، يا سعد إني أجدها دون أحد .

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، فقال : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قتل .

يقول أنس ﷺ لقد وجدنا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا أخته عرفته ببنانه .

وقاتل زياد بن السكن في خمسة من الأنصار دون رسول الله ﷺ يقتلون رجلاً ثم رجلاً ، فقاتل زياد حتى أثبتته الجراحة وقال رسول الله ﷺ أدنُوه مني ، فأدنَوه ، فوسَّدَه قدمه ، فمات وخدّه على قدم رسول الله ﷺ .

وكان عمرو بن الجَمُوح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب ، يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى أحد ، أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل له رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد .

فأتى عمرو رسولَ الله ﷺ فقال : إن بنيَّ هؤلاء يمنعونني أجاهد معك ، ووالله إني لأرجو أن أُسْتَشْهَد ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ : « **أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد** » ، وقال لبنيه : « **وما عليكم أن تَدَعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة** » ، فخرج مع رسول الله ﷺ فقُتِلَ يوم أُحد شهيدًا .

يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته ، فاقرأه مني السلام ، وقل له : يقول لك رسول الله : كيف تجدك ؟ ، قال : فجعلتُ أطوف بين القتلى ، فأتيتُه ، وهو بآخر رمق [1] ، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح ، وضربة بسيف ، ورمية بسهم ، فقلت : يا سعد ! إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أخبرني كيف تجدك ؟ ، فقال : وعلى رسول الله السلام ، وقل له يا رسول الله : أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله ، إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف [2] ، وفاضت نفسه من وقته .

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدوّ غدًا فيقتلوني، ثم يَبْقروا [3] بطني ويجْدَعُوا [4] أنفى وأذني ، ثم تسألني

---

(١) بقية الروح وآخر النفس .

(٢) تتحرك بالنظر .

(٣) يشقوا .

(٤) يقطعوا .

فيم ذاك ؟ . فأقول : فيك .

عودة المسلمين إلى مركزهم :

ولما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، وأدركه أُبي بن خلف وهو يقول : أي محمد ! لا نجوتُ إن نجوتَ، وقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا ، تناول رسول الله ﷺ الحربة من أحد أصحابه ، ثم استقبله ، وطعنه في عنقه طعنة تقلّب بها عن فرسه مرارًا .

وخرج عليّ بن أبي طالب فملأ درقته ماء [١] ، وغسل عن وجهه الدم ، وكانت فاطمة بنت الرسول تغسله ، وعليّ يسكب الماء بالمجنّ ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدم .

وكانت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم تنقلان القِرَب على متونهما ، تفرغانه في أفواه القوم ثم ترجعان فتملآن ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم ، وكانت أم سليط تزفر [٢] لهما القرب .

ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى ، من المسلمين ، يجدعن الآذان والأنف ، وبقرت عن كبد حمزة ، فمضغتها ، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .

ولما أراد أبو سفيان الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سجال، يوم بيوم ، اعل هبل ، فقال النبي ﷺ : **«قم يا عمر ، فأجبه فقل : الله أعلى وأجل ، لا سواء ، فقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار »** ، قال

---

(١) الدرقة (بفتحتين) الترس من جلود ليس فيه خشب ولا عصب .

(٢) تزفر : تستقي .

أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، قال النبي ﷺ : « أجيبوه ! » قالوا: ما نقول ؟ قال : « **قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم** » .

ولما انصرف ، وانصرف المسلمون ، نادى : «إن موعدكم بدر للعام القابل » ، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه :

« قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد » .

وفرغ الناس لقتلاهم ، وحزن رسول الله ﷺ على حمزة ، وكان عَمَّه وأخاه من الرضاعة والمقاتل دونه .

صبر امرأة مؤمنة :

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام : ألقها ، فأرجعها ، لا ترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمه ! إنّ رسول الله ﷺ يأمركِ أن ترجعي ، قالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مُثّل بأخي ، وذلك في الله ، لأحتسبن ولأصبرنّ، إن شاء الله ، وأتته ، فنظرت إليه ، وصلّت عليه ، واسترجعت واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدُفِن .

كيف دفن مصعب بن عمير وشهداء أحد ؟

وقتل مصعب بن عمير صاحب لواء رسول الله ﷺ ، ومن أَنْعَمِ فيتان قريش قبل الإسلام، فكُفّن في بردة ، إن غُطّي رأسه ، بدت رجلاه ، وإن غُطّي رجلاه ، بدت رأسه ، فقال النبي ﷺ : غطُّوا بها رأسه ، واجعلوا على رجله الإذخر [١] .

وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم

---

(١) حشيش طيب الرائحة .

يقول : أيهم أكثر أخذًا للقرآن ، فإذا أشير له إلى أحد ، قدّمه في اللحد ، وقال : « أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة » ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم يغسّلوا .

إيثار النساء لرسول الله ﷺ :

عاد المسلمون إلى المدينة ، فمرّوا بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها وأبوها، مع رسول الله ﷺ ، فلما نَعَوّا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ ؟ ، قالوا : خيرًا يا أم فلان! هو بحمد الله كما تحبّين ، قالت : أرونيه ، حتى أنظر إليه ، قالت : فأُشير لها إليه ، حتى إذا رأته ، قالت: كل مصيبة بعدك جلل [1] .

خروج الرسول ﷺ والمسلمين في أثر العدو واستماتتهم في نصرة الرسول ﷺ : وتلاوم المشركون وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئًا ، أصبتم بشوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم [2] ، فأمر رسول الله ﷺ بطلب العدو .

هذا ، والمسلمون مُثْخَنون بالجراح ، فلما كان الغد من يوم أحد ، أذَّن مؤذّن رسول الله ﷺ في الناس بالخروج في طلب العدو ، وأذن أنه لا يخرجنّ معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس ، وما من المسلمين إلا جريح ثقيل ، فخرجوا مع رسول الله ﷺ لم يتخلف منهم أحد ، وانتهوا إلى حمراء الأسد ، وهي من المدينة على ثمانية أميال فأقام بها رسول الله ﷺ والمسلمون الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجعوا إلى المدينة .

وقد اسْتُشْهِدَ من المسلمين يوم أُحد سبعون ، أكثرهم من الأنصار ﷺ

---

(١) جلل : أي هيّن يسير .

(٢) لم تبتروهم : لم تقطعوهم .

وقُتِلَ من المشركين اثنان وعشرون رجلاً .

أحب إلى النفس من النفس :

وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت عضل والقارة نفرًا من المسلمين ، ليعلموهم ، فبعث معهم رسول الله ﷺ ستةً من أصحابه ، معهم عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدسنّة ، فغدروا بالجماعة وقتل أكثرهم .

وأخرجوا زيدًا من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ! أتحبّ أن محمدًا عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك ، قال : والله ما أحبّ أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي ، قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدًا يحبّ أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا ، ثم قتل .

وأما خبيب ، فلما جاؤوا به ليصلبوه ، قال لهم : إن رأيتم أن تَدعُوني حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ، قالوا : دونك ، فاركع ، فركع ركعتين ، أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال : أما والله، لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جَزَعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة ، وأنشد بيتين :

فلست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أيّ شق كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال[1] شلو

بئر معونة :

بعث رسول الله ﷺ نفرًا من أصحابه على طلب من عامر بن مالك ليدعوهم إلى الإسلام ، وكانوا سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فساروا حتى

---

(١) أوصال : جمع وصل بفتح الواو ، كل عضو على حدَة .

(٢) شلو بكسر الشين : العضو من أعضاء اللحم .

(٣) مزّع الشيء : فرّقه جِدّ تفريق .

نزلوا بئر معونة ، واجتمع عليهم قبائل من بني سُلَيم : عصية ، ورعل ، وذكوان ، فغشوا القوم ، وأحاطوا بهم في رحالهم ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوا حتى قُتِلُوا عن آخرهم ، إلاّ كعب بن زيد ، عاش حتى قُتِل يوم الخندق شهيدًا.

كلمة قتيل كانت سببًا لإسلام القاتل :

وفي هذه السرية قتل حَرَام بنُ ملْحان ، قتله جبار بن سلمى ، وكان سبب إسلامه كلمة قالها حرام ، وهو يجود بنفسه ، يقول جبار : إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنتُ رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرمح ، حين خرج من صدره ، فسمعته يقول : فزت وربّ الكعبة! فقلت في نفسي : ما فاز ؟! ألست قد قتلتُ الرجلَ ؟ ، حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: للشهادة ، فقلت : فاز لعمَر الله ، فكان سببًا لإسلامه .

إجلاء بني النضير :

خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير - وهم قبيلة عظيمة من اليهود - يستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف ، فرَقُّوا في الكلام ، ووعدوا بخير ، ولكنهم أضمروا الغدر والاغتيال ، وكان رسول الله ﷺ قاعدًا إلى جنب جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن رجل يعلو على هذا البيت ، فيُلْقي عليه صخرةً فيريحنا منه ؟ ، وكان رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي .

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة ، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، ثم سار بالناس ، حتى نزل بهم ، وذلك في شهر ربيع الأول ، سنة أربع ، فحاصرهم ست ليال ،

وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ، ويكفّ عن دماءهم ، على أن لهم ما حملت الإِبل من أموالهم إلا السلاح ، فقبل ، واحتملوا من أموالهم ما استقلت بها الإِبل .

وقسّم رسول الله ﷺ أموالهم إلى المهاجرين الأولين .

غزوة ذات الرقاع :

وفي سنة أربع غزا رسول الله ﷺ نجدًا ، فسار حتى نزل نخلاً ، وقد خرجوا مع النبي ﷺ وكانوا ستة بينهم بعير ، فنقبت أقدامهم ، وسقطت أظفارها ، فكانوا يلفّون على أرجلهم الخرق، فسمّيت «غزوة ذات الرقاع» .

وتقارب الناس ، ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناس بعضهم بعضًا ، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف .

*****

غزوة الخندق
أو
غزوة الأحزاب

وفي شوال سنة خمس كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ، وكانت معركة حاسمة ومحنة ابتلى فيها المسلمون ابتلاءً لم يبتلوا بمثله ، وفيها يقول تعالى :

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ .

[الأحزاب : ١١]

وكان سببها اليهود ، فقد خرج نفر من بنَي النضير ، ونفر من بني وائل ، فقدموا على قريش مكة ، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وكانوا قد جرّبوها ، واكتووا بنارها ، فصاروا يتهيؤونها ، ويزهدون فيها ، فزيّنها لهم الوفد اليهودي ، وهوّن أمرها ، وقالوا : إنا سنكون معكم حتى نستأصله ، فسرّ ذلك قريشًا ، ونشطوا لما دعوهم إليه ، واجتمعوا لذلك واتّعدوا له ، ثم خرج الوفد ، فجاء غطفان ، فدعاها إلى ذلك ، وطاف في القبائل ، وعرض عليها مشروع غزو المدينة وموافقة قريش عليه .

واتفقوا على شروط ، وحشدت [1] قريش أربعة آلاف مقاتل ، وغطفان ستة آلاف مقاتل ، فكانوا عشرة آلاف ، وأسندت قيادة الجيش إلى أبي سفيان ابن حرب .

---

(١) جمعت .

الحكمة ضالة المؤمن :

وقرّر المسلمون التحصّن في المدينة والدفاع عنها ، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل .

هنالك أشار سلمان الفارسي بضرب الخندق على المدينة ، قال سلمان : يا رسول الله إنا كنا بأرض فارس إذا تخوّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، وقبل رسول الله ﷺ رأيه ، فأمر بحفر الخندق في الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام(١) العدوّ .

وقسم رسول الله ﷺ الخندق بين أصحابه ، لكل عشرة منهم أربعين ذراعًا .

روح المساواة والمواساة بين المسلمين :

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق ، ترغيبًا للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه، فدأب(٢) فيه ودأبوا ، وكان البرد شديدًا ، ولا يجدون من القوت إلا ما يسدّ الرمق ، وقد لا يجدونه.

يقول أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه عن حجرين .

وكانوا مسرورين ، يحمدون الله ، ويرتجزون ، ولا يشكون ولا يتعتبون .

يقول أنس رضي الله عنه : خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال : اللهم ! إن العيش عيش الآخره .

---

(١) هجوم .

(٢) استمرّ الجد واللعب .

فارحم الأنصار والمهاجره .

فقالوا مجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمدًا

على الجهاد ما بقينا أبدا

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة ، لا تأخذ فيها المعاول ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فلما رآها أخذ المعول ، وقال: بسم الله ، وضرب ضربة ، فكسر ثلثها ، وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثًا آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض .. ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة .

المعجزات النبوية في الغزوة :

وظهرت المعجزات على يد الرسول ﷺ فإذا اشتدت على المسلمين في بعض الخندق كدية[1] ، دعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ثم دعا بها شاء الله أن يدعو به ، ونضح ذلك الماء على تلك الكدية ، فانهالت وعادت كالكثيب[2] .

وظهرت البركة في طعام قليل ، فشبع به عدد كبير ، وكفى الجيش كله .

إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم :

وأقبلت قريش وغطفان بتوابعهم ، فنزلوا أمام المدينة ، **وكانوا عشرة آلاف ،** وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاث آلاف **وبينه وبين قومه الخندق .**

(١) كدية : الأرض الصلبة الغليظة ، أو الصفاة العظيمة الشديدة .

(٢) الكثيب : التلّ من الرمل .

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقد وعهد ، فحملهم حيي بن أخطب ـ سيد بني النضير ـ على نقض العهد ، وقد فعل ذلك بعد امتناع وتردّد ، وتحقّقه رسول الله ﷺ فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، وهمَّ رسول الله ﷺ بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة ، رفقًا بالأنصار ، وتخفيفًا عنهم ، فقد استقلوا بأكبر نصيب من أعباء الحرب .

ثم عدل عن ذلك ، بعدما رأى من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، الثبات والاستقامة والصمود أمام العدوّ ، والإباء ، فقال : يا رسول ! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون منها تمرة إلا قرى [1] أو بيعًا ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزّنا بك وبه ، نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم ، قال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك .

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية :

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون ، وعدوّهم محاصروهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس من قريش أقبلوا تسرع بهم خيلهم ، حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا : والله ، إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها !

ثم تيمّموا مكانًا ضيقًا من الخندق ، فضربوا خيلهم ، فاقتحمت منه ، فجالت بهم في أرض المدينة ، ومنهم الفارس المشهور : عمرو بن عبد وُدّ ، الذي كان يُقَوَّم بألف فارس ، فلما وقف قال: من يبارز ؟ فبرز له عليّ بن أبي طالب ﷺ فقال : يا عمرو ! إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش

---

(١) القرى : الضيافة .

إلى إحدى خلتين ، إلا أخذتها منه .

قال : أجل .

قال له علي : فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام .

قال : لا حاجة لي بذلك .

قال : فإني أدعوك إلى النزال ، فقال له : لمَ يا بن أخي ! فو الله ، ما أحبّ أن أقتلك ، قال له عليّ رضي الله عنه : لكني والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو عند ذلك ، فاقتحم عن فرسه ، فعقره ، وضرب وجهه ، ثم أقبل على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله علي رضي الله عنه .

أم تحرض ابنًا لها على القتال والشهادة :

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب : مرّ سعد بن معاذ ، وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وهو يرتجز ، فقالت له أمه : الحق ابني ! فقد والله أخّرت ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت لها : يا أم سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ، وكان ما تخوّفته عائشة رضي الله عنها فرُمَي سعد بن معاذ بسهم ، فقطع منه الأكحل [1] ومات شهيدًا في غزوة بني قريظة .

ولله جنود السماوات والأرض :

أحاط المشركون بالمسلمين حتى جعلهم في مثل الحصن من كتائبهم ، فحاصروهم ، قريبًا من شهر ، وأخذوا بكل ناحية ، واشتد البلاء ، وتجهّر النفاق ، واستأذن بعض الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذهاب إلى المدينة ، وقالوا :

﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب].

---

(١) الأكحل : عرق في الذراع .

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة ، إذ جاءه نُعيْم بن مسعود الغطفاني ، فقال : يا رسول الله ! إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنّا ، إن استطعت ، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود ، فأتى بني قريظة ، وتكلّم معهم بكلام ، جعلهم يشكون في صحة موقفهم ، وولائهم لقريش وغطفان الذين ليسوا من أهل البلد ، وعدائهم للمهاجرين والأنصار الذين هم أهل الدار ، وجيرانهم الدائمون ، وأشار عليهم بألاّ يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رُهُنًا من أشرافهم ، يكونوا بأيديهم ثقة لهم ، فقالوا له : لقد أشرت بالرأي .

ثم خرج حتى أتى قريشًا ، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته ، وأخبرهم بأن اليهود قد ندموا على ما فعلوا ، وسيطلبون منهم رجالاً من أشرافهم تأمينًا للعهد ، وسيسلمونهم إلى النبي ﷺ وأصحابه ، فيضرون أعناقهم ، ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش ، فكان كل الفريقين على حذر ، وتوغرت صدورهم على اليهود ، ودبّت الفرقة بين الأحزاب ، وتوجّس كل منهم خيفة من صاحبه .

ولما طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين تكاسل الهيود ، وطلبوا منهم رهنًا من رجالهم ، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدثهم به نعيم بن مسعود ، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم ، وتحقق لليهود صدق حديثه كذلك ، وهكذا تخاذل بعضهم عن بعض، وتمزق الشمل ، وتفرّقت الكلمة .

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الريح في ليال شاتية

باردة شديدة البرد، فجعلت تقلب قدورهم وتطرح أبنيتهم ، وقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف [١] ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا ، فإني مرتحل .

وقام أبو سفيان إلى جمله وهو معقول ، فجلس عليه ثم ضربه ، فما أطلق عقاله وهو قائم .

وسمعت غطفان بما فعلت قريش ، فانشمروا [٢] راجعين إلى بلادهم ، ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، وأخبره حذيفة بن اليمان ، الذي أرسله رسول الله ﷺ عيناً إلى الأحزاب ، ينظر له ما فعل القوم ، ثم يرجع ، فأخبره بما رأى ، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة ، وانصرف المسلمون ، ووضعوا السلاح ، وصدق الله العظيم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٩] ، وصدق تبارك وتعالى : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : ٢٥] .

وقد وضعت الحرب أوزارها ، فلم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين ، وقال رسول الله ﷺ : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم .

(١) الخفّ: للبعير والنعام ، كالحافر لغيرهما ، والمراد هنا ذو الخف من الحيوان .

(٢) انهزموا وانفضوا .

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة ، على أكثر تقدير ، وقتل من المشركين أربعة .

*****

غزوة بني قريظة

نقض بني قريظة العهد

كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة ، كتب كتابًا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليه ، وجاء فيه : «أن بينهم النصر على ما حاري أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِر دون الإثم ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

ولكن حيي بن أخطب اليهودي سيد بني النضير نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد ، وممالأة قريش ، بعد ما قال سيدهم كعب بن أسد القرظي : لم أر من محمد إلاّ صدقًا ووفاء ، ونقض كعب بن أسد عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ خبر نقضهم للعهد ، بعث سعد بن معاذ رضي الله عنه سيد الأوس وهم حلفاء بني قريظة ـ وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، فوجودهم على شر مما بلغهم عنهم ، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

وبدؤوا في الاستعداد للهجوم على المسلمين، وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف، وكان ذلك أشدّ وأنكى الهجوم السافر والحرب في الميدان ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب : ١٠] .

المسير إلى بني قريظة :

فلما انصرف رسول الله ﷺ والمسلمون من الخندق ، راجعين إلى المدينة ، ووضعوا السلاح ، أتى جبرائيل وقال : أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

قال : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة ، فإني عامد إليهم ، فمزلزل بهم ، فأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن في الناس : أن من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلاّ في بني قريظة .

ونزل رسول الله ﷺ ببني قريظة ، فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة ، حتى جهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب .

أتى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم :

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فشفعت لهم الأوس وكانوا مواليهم دون الخزرج، فقال رسول الله ﷺ :

ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى ، قال رسول الله ﷺ : فذاك إلى سعد بن معاذ ، فأرسل إليه ، فلما جاء إليه ، قال له بنو قبيلته : يا أبا عمرو ! أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاّك ذلك ، لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه ، قال : لقد أتى لسعد ألّا تأخذه في الله لومة لائم ، قال سعد : فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء ، قال رسول الله ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله .

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل ، ووافق ما جاء في التوراة ونفذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ ، وأمن المسلمون من الطعن من الخلف ، ومن نشر الفوضى في الداخل.

وقتلت الخزرج سلام بن أبي الحقيق ، وكان ممن حزّب الأحزاب ، وكانت الأوس قد قتلت من قبل كعب بن الأشرف ، وكان مقدمًا في عداوته لرسول الله ﷺ والتحريض عليه ، فنجا المسلمون من الرؤوس التي كانت تكيد ضد

الإسلام والمسلمين ، وتقود الحركات ضدهم واستراح المسلمون .

العفو عمّن ظلم وعطاء من حرم :

بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد ، فجاءت بثمامة بن أثال سيد بني حنيفة ، فربط إلى سارية من سواري المسجد .

ومرّ به رسول الله ﷺ وقال : ما عندك يا ثمامة ؟

قال : يا محمد إذ تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال ، فاسأل تعط منه ما شئت ، فتركه ثم مرّ به مرة أخرى ، وقال له مثل ذلك فردّ عليه كما ردّ عليه أولاً ، ثم مرّ به مرّة ثالثة فقال : أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه .

وذهب ثمامة إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشّره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر .

فلما قدم ثمامة على قريش ، قالوا : صبوت [١] يا ثمامة قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ ووالله ، ما يأتيكم من اليمامة حبة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ وكان اليمامة ريف [٢] مكة .

فانصرف إلى بلاده ، ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت [٣] قريش ،

(١) أي خرجت من دينك .

(٢) ريف : الأرض الخصبة التي يأتي منها الطعام .

(٣) جهدت بالبناء للمفعول : هزلت وضعفت .

وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم ، أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام ففعل رسول الله ﷺ .

*****

صلح الحديبية

رؤيا رسول الله ﷺ وتهيؤ المسلمين لدخول مكة :

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام ، أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فاستبشروا به ، وفرحوا فرحًا عظيمًا وقد طال عهدهم بمكة ، والكعبة ، وتاقت نفوسهم إلى الطواف حولها .

وكان المهاجرون أشدهم حنينًا إلى مكة ، فقد ولدوا ونشؤوا فيها ، وأحبوها حبًّا شديدًا ، وقد حيل بينهم وبينها ، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك ، تهيؤوا للخروج مع رسول الله ﷺ ولم يتخلف منهم إلا نادر .

إلى مكة بعد عهد طويل :

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة سنة ست ، معتمرًا - لا يريد حربًا - إلى الحديبية، ومعه ألف وخمس مائة ، وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة [1] ، ليعلم الناس أنه إنما خرج زائرًا للبيت معظمًا له .

وبعث بين يديه عينًا له ، يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريبًا من عسفان [2] أتاه عينه ، فقال: إني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك جموعًا ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، وسار النبي ﷺ حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ماء قليل ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهمًا من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فما زال يجيش لهم بالريّ حتى صدروا [3] عنه .

---

(١) العمرة : لغة : الزيارة ، وفي الشرع : زيارة البيت الحرام بكيفية خاصة وشروط مخصوصة ، وما يقوم به المعتمر من الأعمال هو الإحرام ، والطواف ، والسعي ، والحلق ، والتقصير .

(٢) موضع بين جحفة ومكة .

(٣) أي رجعوا عنه وهم رواة .

وفزعت قريش لنزول رسول الله ﷺ عليهم ، فأحب أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمارًا ، وادعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفي فيها بالإيمان .

وانطلق عثمان حتى جاء مكة ، وأتى أبا سفيان ، وعظماء قريش ، وبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به .

قالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت ، فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ .

بيعة الرضوان :

بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه أن لا يفرّوا وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان ، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة سمرة في الحديبية ، التي أنزل الله عنها :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] .

واختلفت أربعة رسل بين قريش وبين رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ يقول لكل واحد : إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين ، وقريش على عنادها وإبائها .

ومن هؤلاء الرسل عروه بن مسعود الثقفي ، ورجع إلى أصحابه وقال : أي قوم ! والله ، لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي ، والله

ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ، ووصف لهم ما رآه .

معاهدة وصلح ، وحكمة وحلم :

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، وقال : اكتب بيننا وبينكم كتابًا .

فدعا الكاتب ـ وهو علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه فقال : اكتب : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، فقال سهيل : أما الرحمن فو الله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب « باسمك اللهم » كما كنت تكتب ، فقال المسلمون : والله لا نكتبها ، إلا «بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال النبي ﷺ اكتب : «باسمك اللهم ! » .

ثم قال : اكتب «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » .

فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك [1] عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال النبي ﷺ : إني رسول الله وإن كذبتموني ، اكتب : «محمد بن عبد الله» ، **فأمر عليًا أن يمحوها** ، فقال عليّ : لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : **« أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاها »** .

فقال النبي ﷺ : « هذا ما قاضى عليه رسول الله ، على أن تخلوا بينا وبين البيت ، فنطوف به » .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أُخِذنا ضغطة ، ولكن ذلك من **العام المقبل ، فكتب** .

---

(١) ما منعناك .

قال سهيل : وعلى ألَّا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك رددته إلينا ، فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا ؟! وبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل، يرسف [1] في قيوده ، قد خرج من أسفل مكه ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده .

قال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد .

قال : فو الله إذًا لا أقاضيك على شيء أبدًا ، قال النبي ﷺ فأجزه لي .

قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى ، فافعل ، قال : ما أنا بفاعل .

قال أبو جندل : يا معشر المسلمين !

أُرد إلى المشركين ، وقد جئت مسلمًا ، ألا ترون ما لقيت ـ وكان عذب في الله عذابًا شديدًا ، وردّه رسول الله ﷺ .

وقد اصطلح الفريقان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من أتى محمدًا ﷺ من قريش بغير إذن وليه ، ردّه عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد ﷺ لم يرده عليه ، وأنه من أحبّ أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده ، دخل فيه ، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

بلاء المسلمين في الصلح والعودة إلى مكة :

فلما رأى المسلمون ما رأوه من الصلح والرجوع ، وما تحمّل عليه رسول الله ﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ،

---

(١) يرسف : جاء يتحامل برجليه مع القيود .

ووقع ذلك من نفوسهم كل موقع[1] ، حتى جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر ﷺ فقال : ألم يكن رسول الله ﷺ يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ ، قال : بلى .

فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ ، قال : لا ، قال : فإنك آتيه ومطوف به .

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح ، قام إلى هديه ، فنحره ، ثم جلس ، فحلق رأسه ، وعظم ذلك على المسلمين ؛ لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكه والعمره ، ولكن لما رأوا رسول الله ﷺ قد نحر ، وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون .

صلح مهين أو فتح مبين :

ثم رجع إلى المدينة ، وفي مرجعه أنزل الله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح : ١ ـ ٣] .

قال عمر ﷺ أو فتح هو يا رسول الله ؟ ، قال : نعم !

عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم :

ولما رجع إلى المدينة ، جاءه رجل من قريش ، اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به ، فخرج هاربًا منهم ، حتى أتى سيف[2] البحر ، وتفلت منهم ، أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم ، إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة ، لا يسمعون بعير لقريش خرجت

---

(١) يعني أثر فيهم تأثيرًا كبيرًا .

(٢) سيف البحر ساحله .

إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن .

ودلّت الحوادث الأخيرة على أن صلح الحديبية الذي تنازل فيه رسول الله ﷺ لقبول كل ما ألحّت عليه قريش ، ورأوا فيه انتصارًا لهم ومكسبًا [(١)] ، وتحمّله المسلمون في قوة إيمانهم وشده طاعتهم للرسول ﷺ كان فتح باب جديد لانتصار الإسلام وانتشاره في جزيرة العرب بسرعه لم تسبق ، وكان بابًا إلى فتح مكة ، ودعوه ملوك العالم لقيصر وكسرى ومقوقس وأمراء العرب ، وصدق الله العظيم :

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ .

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص :

وكان صلح الحديبية فتحًا للقلوب ، فدخل في الإسلام خالد بن الوليد ، الذي كان قائدًا لفرسان لقريش ، وبطل معارك عظيمة ، وقد سمّاه رسول الله ﷺ سيف الله وهو الذي أبلى في الله بلاءً حسنًا ، وفتح على يده الشام ، ودخل عمرو بن العاص أحد كبار القادة والأمراء ، وفاتح مصر من بعد ، وقد قدما المدينة بعد صلح الحديبية ، فأسلما وحسن إسلامهما .

وأتاح هذا الصلح فرصة الاختلاط بين المسلمين والمشركين ، فاطّلع المشركون على محاسن الإسلام وعلى أخلاق المسلمين فلم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام خلق كثير .

*****

---

(١) مصلحة ومنفعة .

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام

دعوة وحكمة :

ولما تم الصلح ، وهدأت الأحوال ، كتب رسول الله ﷺ كتبًا إلى ملوك العالم وأمراء العرب ، يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، واهتم اهتمامًا كبيرًا ، فاختار لكل واحد منهم رسولاً يليق به ، وقيل له : إنهم لا يقبلون كتابًا إلا بخاتم ، فصاغ رسول الله ﷺ خاتمًا حلقته فضه ، ونقش فيه «محمد رسول الله » .

تسليم هرقل للإسلام وامتناعه عنه :

ومن هؤلاء الملوك الإمبراطور الرومي «هرقل» ، وإمبراطور فارس كسرى أبرويز والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر .

فأما هرقل والنجاشي والمقوقس ، فتأدبوا ورقّوا في جوابهم ، وقد أراد هرقل أن يتثبت في أمر النبي ﷺ وبحث عمّن يستخبره في شأنه ، وصادف ذلك وجود أبي سفيان في غزّة ، فأحضر إليه ـ وقد جاء في تجارة ـ وكانت استفساراته استفسارات عاقل مجرب ، خبير بتاريخ الديانات ، وخصائص الأنبياء وسيرهم ، وشأن الأمم معهم وسنَّة الله في أمرهم ، وصدقه أبو سفيان ، شأن العرب الأولين ، حياء من أن يؤثر الناس عليه كذبًا .

فلما سمع هرقل كل ذلك ، أيقن أنه نبي الله ، وقال : إن كان ما تقوله حقًا ، فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أني أخلص [١] إليه، لتجشّمت [٢] لقاءه ، ولو كنت عنده

---

(١) أخلص إليه : أي أصل إليه .

(٢) لتجشمت لقاءه : أي لتكلفت لقاءه .

لغسلت عن قدميه ، وأذن لعظماء الروم في القصر ، وأمر بأبوابه فغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم ، وتبايعوا هذا النبي ، فنخروا وبادروا إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان ، قال : ردّوهم عليّ ، وقال : إني قلت مقالتي آنفًا ، أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه .

فآثر الملك على الهداية ، ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حروب ومعارك ، كان فيها ذهاب ملكه وسلكانه .

أدب النجاشي والمقوقس :

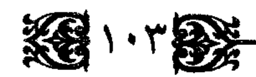
وأما النجاشي والمقوقس ، فأكرما رسل رسول الله ﷺ وكان جوابهما رفيقًا رقيقًا ، وأرسل المقوقس هدايا ، منها جاريتان ، وكانت إحداهما مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ .

غطرسة كسرى وعقابها :

وأما كسرى فارس ، فلما قرئ عليه الكتاب ، مزقه ، وقال : يكتب إليّ هذا وهو عبدي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : مزّق الله ملكه ، وأمر «كسرى باذان» ، وهو حاكمه على اليمن ، بإحضاره ، فأرسل «بأبويه» يقول له : إن ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله قد سلّط على كسرى ابنه «شيرويه» .

وهكذا كان ، فمزّق الله ملكه ، وملّكه المسلمين ، وهدى أهل إيران للإسلام ، وكتب إلى أمراء العرب ، فمنهم من أسلم ومنهم من امتنع .

*****



غزوة خيبر

جائزة من الله :

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بشّر أصحاب بيعة الرضوان ـ في الحديبية ـ بالفتح القريب ، والمغانم الكثيرة ، فقال :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[الفتح : ١٨ ، ١٩] .

وكان مقدمة هذه الفتوح والمغانم غزوة خيبر ، فكانت خيبر مستعمرة [(١)] يهودية تتضمن قلاعًا حصينة ، وقاعدة حربية لليهود ، فأراد رسول الله ﷺ أن يستريح منهم ، ويأمن من جهتهم.

وكانت الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منه .

جيش مؤمن تحت قيادة نبي :

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج في بقية المحرم على خيبر ، وكان عامر بن الأكوع يرتجز في مسيره إليها ، فيقول :

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلَّينا
إنا إذا قوم بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا

وأقبل بجيشه ، وكانوا ألفًا وأربع مائة ، وكان معهم مائتا فرس ، ولم يأذن

(١) ما تملكته دولة في بلاد غير بلادها .

لمن تخلف عن الحديبية ، وخرجت عشرون امرأة من نساء الصحابة ، لمداواة المرضى ، وخدمة الجرحى والإسعاف[1] بالماء والطعام ، أثناء القتال .

ودعا رسول الله ﷺ في الطريق بالأزواد ، فلم يؤت إلا بالسويق ، فأمر به فثرى ، فأكل ، وأكل المسلمون ، ودعا رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر وسأل الخير ، واستعاذ من شرها ، وشر أهلها ، وكان إذا غزا قومًا ، لم يغزهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانًا أمسك ، وإن لم يسمع أذانًا أغار، فلما أصبح ، لم يسمع أذانًا ، فركب وركب القوم ، واستقبلوا عمال خيبر غادين ، قد خرجوا بمساحيهم[2] وبمكاتلهم[3] ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش ، قالوا : محمد والخميس[4] معه، فأدبروا هرابًا ، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أكبر ! خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين** » .

قائد منصور :

ونازل رسول الله ﷺ حصون خيبر ، وبدأ يفتتحها حصنًا حصنًا ، وكان أول حصن افتتح حصن ناعم ، افتتحه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد استعصى[5] على المسلمين ، وكان علي بن أبي طالب رمدًا[6] ، فقال رسول الله ﷺ : لأخذن الراية غدًا رجل يحبه الله ورسوله ، يفتح عليه ، وتطاول له كبار الصحابة رضي الله عنهم وكل منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك ، ودعا عليًا ، وهو يشتكي عينيه ، فأتى ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له فبرئ حتى كأن

---

(١) الإعانة والمساعدة .

(٢) المساحي : جمع مسحاة ، المجرفة من الحديد .

(٣) جمع مكتل ، وهي قفة كبيرة .

(٤) الخميس : الجيش .

(٥) اشتد .

(٦) أي مصابًا بالرمد ، والرمد مرض يصيب العين فتهيج وتتألم .

لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية .

فقال علي ﷺ : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا .

فقال : يكونوا مثلنا .

قال رسول الله ﷺ : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من أن يكون لك من حمر النعم .

بين أسد الله وبطل اليهود :

وأتى علي ﷺ مدينة خيبر ، فخرج مرحب ، وهو الفارس المشهور ، يرتجز ، فاختلفا ضربتين ، فبدره علي بضربة ، ففلق مغفره ورأسه ، ووقع في الأضراس ، وكان الفتح .

عمل قليلا وأجر كثيرا :

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي ، فوقع في نفسه ذكر النبي ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال : ماذا تقول ، وما تدعو إليه ؟ ، قال : أدعوا إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن لا تعبد إلا الله ، قال العبد : فما لي أن شهدت وآمنت بالله ـ عز وجل ـ ؟ قال : لك الجنة إن مت على ذلك .

فأسلم ، ثم قال : يا نبي الله ! إن هذه الغنم عندي أمانة ، فقال رسول الله ﷺ : أخرجها من عندك ، وارمها بالحصباء ، فإن الله سيؤدي عنك أمانتك ، ففعل فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ﷺ في الناس ، فوعظهم ، وحضهم على الجهاد، فلما التقى

المسلمون واليهود ، قتل ـ فيمن قتل ـ العبد الأسود ، أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط .

ما على هذا اتبعتك :

وجاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ﷺ شيئًا ، فأقسمه له ، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه إليه ، فقال: ما هذا ؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه ، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال : ما هذا يا رسول الله ؟ ، قال : قسم قسمته لك ، قال : ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي ههنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله يصدقك .

ثم نهضوا إلى قتال العدو ، فأتي به إلى رسول الله ﷺ وهو مقتول ، فقال : أهو هو ؟ ، قالوا : نعم ، قال : صدق الله ، فصدقه ، فكفنه النبي ﷺ في جبته ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجرًا في سبيلك ، قتل شهيدًا وأنا عليه شهيد .

شرط البقاء في خيبر :

وافتتحت الحصون حصن بعد حصن ، بعد قتال وحصار دام أيامًا ، حتى سألوا رسول الله ﷺ الصلح ، وأعطاهم رسول الله ﷺ خيبر ، على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم ، وكان رسول الله ﷺ يبعث إليهم عبد الله بن رواحة فيخرص عليهم ، ويجعل ذلك نصفين . فيخيرهم أن يأخذوا أيهما شاؤوا ، فيقولون بهذا قامت السماوات والأرض .

محاولة أثيمة لليهود :

وفي هذه الغزوة سم رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية ، امرأة سلام بن مشكم ، شاة مشوية قد سمتها ، وسألت أي اللحم أحب إليه ؟ ، فقالوا : الذراع ، فأكثرت من السم في الذراع ، فلما انتهش من ذراعها ، أخبره الذراع بأنه مسموم ، فلفظ الأكلة .

وجمع اليهود ، ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ ، قالوا : نعم ، قال : أجعلتم في هذه الشاة سمًا ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ، قالوا : أردنا إن كنت كاذبًا نستريح منك ، وإن كنت نبيًّا لم يضرك ، وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : أردت قتلك ، فقال: ما كان الله ليسلطك عليّ ، قالوا : ألا نقتلها ؟ ، قال : لا ، ولم يتعرض لها ، ولم يعاقبها.

ولم يقتلها ﷺ أولاً ، فلما مات بشر بن البراء بن معرور الذي أكل من هذه الذراع ، قتلها .

فتوح ومغانم :

وبعد ما انتهى رسول الله ﷺ من أمر خيبر ، انصرف إلى فدك ، ثم جاء إلى وادي القرى ، ودعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم ، وحقنوا [1] دماءهم، وحسابهم على الله .

وأعطى اليهود من غد ما بأيديهم ، وغنم المسلمون أموالاً ، وقسم رسول الله ﷺ ما أصاب على أصحابه ، بوادي القرى ، وترك الأرض والنخل بيد اليهود وعاملهم عليها .

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسول الله ﷺ على أهل خيبر وفدك

---

(١) صانوا وعصموا .

ووادي القرى ، صالحوا رسول الله ﷺ راجعًا إلى المدينة .

عمرة القضاة :

ولما كان العام المقبل ، وذلك في سنة سبع ، قدم رسول الله ﷺ والمسلمون ، وخلى قريش بينه وبين مكة ، وأقفلوا بيوتهم ، وطلعوا على الجبل ، وأقام بمكة ثلاثًا ، واعتمر ، وهو قوله تعالى :

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧] .

التنافي في حضانة البنت :

وقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيرًا عظيمًا ، فعادت البنت التي جرت عادة وأدها في الجاهلية حبيبة يتنافس في كفالتها وتربيتها المسلمون .

لما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة ، تبعته أمامة ابنة حمزة ، تنادي يا عم ! يا عم ! فتناولها علي ﵁ فأخذ بيدها ، وقال لفاطمة ـ عليها السلام ـ دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ، فقال علي : أنا أخذتها ، وهي ابنة عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي ، فقضي بها النبي ﷺ لخالتها ، وقال : الخالة بمنزلة الأم وقال لعلي ﵁ : « أنت منيّ وأنا منْك » ، وقال لجعفر : « أشبهت خلقي وخُلقي » ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » .

*****

غزوة مؤتة

قتل سفير المسلمين وعقوبته :

بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى شرحبيل بن عمرو الغساني ، حاكم «بصرى» التابع لقيصر ملك الروم ، فأوثقه رباطًا ، ثم قدمه ، فضرب عنقه ، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء عند الملوك والأمراء ، وكان فيه خطر عظيم على الرسل والسفراء ، وإهانة شديدة للمرسل والرسالة ، وكان لابد من تأديب هذا المعتدي .

أول جيش في أرض الروم :

فلما بلغ رسول الله ﷺ الخبر ، أراد أن يبعث إلى بصري وذلك في جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة ، فتجهز الناس ، وهم ثلاثة آلاف ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وهو مولى رسول الله ﷺ وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار ، وقال : إن أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة ، فلما حضر خروجهم ، ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم ، وكان أمامهم سفر طويل شاق ، وعدو ذو شوكة . ومضى الجيش ، حتى نزل بمعان . وبلغ المسلمين أن هرقل بالبلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم جمع كثير من قبائل العرب ، فأقاموا على «معان » ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فأما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له .

ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة :

وشجع الناس عبد الله بن رواحة ، فقال : يا قوم ! والله إن الذي تكرهون

للتي خرجتم تطلبون [الشهادة] ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظفر وإما شهادة ، فمضى الناس .

قتال المستميتين وصولة الأسود :

فلما كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم الجموع من الروم والعرب ، ودنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية ، يقال لها : «مؤتة» والتقى الناس ، واقتتلوا .

وقاتل زيد بن حارثة ﵁ براية رسول الله ﷺ حتى استشهد ، وقد أخذت الرماح منه كل مأخذ ، ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى إذا أرهقه القتال ، اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، ثم قاتل فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن الراية بعضديه ، حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة ، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ، ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ، كلها في الأمام .

فلما قتل جعفر ، أخذ عبد الله بن رواحة الراية ، وتقدم بها ، ونزل عن فرسه ، وأتاه ابن عم له بعظم عليه بعض لحم ، وقال : شد بهذا صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت فأخذه بيده، وأخذ منه بفمه يسيرًا ، ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه ، فتقدم وقاتل حتى قتل .

قيادة خالد الحكيمة :

واصطلح الناس بعده على خالد بن الوليد ﵁ فأخذ الراية ، ودافع القوم ، وكان شجاعًا حكيمًا ، يعرف سياسة الحرب ، فانحاز بالجيش الإسلامي إلى الجنوب ، وانسحب العدو نحو الشمال ، وجن الليل فانصرف بالناس ، وكلا الفريقين اغتنم السلامة ، ورأى المصلحة في عدم التحرش [١] ومتابعة القتال ،

---

(١) التحرش : التعرض .

وتهيب الروم المسلمين بحكمة خالد ، وتقاعسوا .

خبر عيان لا بيان :

وبينما كان المسلمون يخوضون المعركة ، كان رسول الله ﷺ يخبر أصحابه في المدينة ، بما يجري في المعركة ، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس ، قبل أن يأتيه خبرهم ، فقال : أخذ الراية زيد ، فأصيب ، ثم أخذها جعفر ، فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة ، فأصيب وعيناه تذرفان [١] ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم.

الطيار ذو الجناحين :

وقال في جعفر : إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء ، ولذلك لقب بجعفر الطيار وذي الجناحين .

كرارون لا فرارون :

ولما دنا الجيش من حول المدينة ، تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون : يا فرار ! فررتم في سبيل الله ، ويقول رسول الله ﷺ : ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار ، إن شاء الله تعالى .

****

---

(١) تسيلان بالدموع .



فتح مكة

تمهيد لفتح مكة :

ولما تم أمر الله في دينه وفي عباده ، أراد أن يدخل رسوله ، والمسلمون مكة ، ويطهروا الكعبة من الأوثان ، فتكون مباركًا ، وهدى للعالمين ، ويعيدوا مكة إلى ما كانت عليه فتكون مثابةً للناس وأمنًا .

نقض بني بكر وقريش الحلف :

وقد هيأ الله لذلك أسبابًا ، وساعدت عليها قريش .

كان قد تقرر في صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده ، فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ، فعل ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده .

وكان بين بني بكر وبين خزاعة عداء متوارث ، وجاء الإسلام فحجز بينهم وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كانت الهدنة ، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة ، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فبيت نفر من بني بكر خزاعة ، وهم على ماء لهم ، فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا.

وأعانت قريش بني بكر السلاح ، وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلاً ، حتى حازوا[(١)] خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر لبعض رجالهم : إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك ! فقالوا : لا إله اليوم ! يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك .

---

(١) جعلوها تنحاز إلى الحرم وتلتجئ إليه .

الاستغاثة برسول الله ﷺ :

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي ، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه ، وأنشد أبياتًا، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة ، وسأله النصر ، والنجدة ، ويخبره بأن قريشًا أخلفوه الموعد ، ونقضوا ميثاقه المؤكد ، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم ، وقتلوهم ركعًا سجدًا ، فقال رسول الله ﷺ «نُصرت يا عمرو بن سالم» .

محاولة قريش لتجديد العهد :

وقال رسول الله ﷺ للناس حين بلغه الخبر : «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم يشد العقد ويزيد في المدة» ، وهكذا كان ، فرهبت قريش مما صنعت .

إيثار النبي على الآباء والأبناء :

وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ المدينة ، ودخل على ابنته «أم حبيبة» - زوج النبي ﷺ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه ، فقال : يا بنيتي ! ما أدري أرَغِبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ ، قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : والله لقد أصابك يا بنيتي بعدي شر .

حيرة أبي سفيان واخفاقه :

وأتى أبو سفيان رسول الله ﷺ فكلمه ، فلم يرد عليه شيئًا ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، وراود[1] عمر وعليًّا وفاطمة على ذلك ، فلم يجبه أحد إلى ذلك ، وقالوا : إن الأمر أجل منه ، حتى احتار في أمره .

---

(١) أي : راجعهم وحاول إرضائهم بكل حيلة .

التأهب لمكة :

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز ، واستعان على أمره بالكتمان ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتجهز ، وقال : اللهم ! خذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها [1] في بلادها ، وخرج في رمضان من المدينة ومعه عشرة آلاف وذلك على رأس ثمان سنين ، ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل «مر الظهران» وعمى الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب.

العفو عمن ظلم :

ولقي رسول الله ﷺ في الطريق ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأعرض عنه، لما كان يلقاه منه من شدة الأذى والهجو ، فشكا ذلك إلى علي ، فقال له : ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف :

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، وحسن إسلامه بعد ذلك ، وما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ اسلم حياء منه.

أبو سفيان بن حرب بين يدي رسول الله ﷺ :

وأمر رسول الله ﷺ الجيش ، فأوقدوا النيران ، وخرج أبو سفيان بن حرب يتجسس الأخبار - وهو يقول : ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكر - وكان العباس بن عبد المطلب قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا ولحق بالعسكر ، فعرف صوت أبي سفيان ، وقال : هذا رسول الله

(١) نبغتها : أي نفاجئها ونأتيها فجأة .

ﷺ في الناس، وإصباح قريش! فأركبه في عجز بغلته، وخشي عليه أن يدركه أحد المسلمين، فيقتله، وأتى به رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك!، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

قال العباس: ويحك! أسلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

عفو عام وأمن بسيط:

ووسع رسول الله ﷺ في الأمن والعفو، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلا من زهد في السلامة وكره الحياة، فقال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ونهى رسول الله ﷺ جيشه عن أن يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة على أي إنسان إلا من اعترضهم وقاومهم، وأمر بأن يعف الجيش من أموال أهل مكة وممتلكاتهم، وأن يكفوا أيديهم عنها.

أبو سفيان أمام موكب الفتح:

وأمر رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب [1] الإيمان.

---

(١) جمع كتيبة، وهي القطعة من الجيش.

وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج ، وكانت القبائل تمر على راياتها ، كلما مرت قبيلة سأل أبو سفيان عباسًا عنها وعن اسم القبائل ، فيقول : ما لي ولبني فلان ، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبة خضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق [1] من الجديد ، فقال : سبحان الله! يا عباس من هؤلاء ؟ قال : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا ، قال : يا أبا سفيان ! إنها النبوة ، قال : فنعم ، إذًا .

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قِبل [2] لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، ما تغني عنّا دارك ؟ قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال :

ودخل رسول الله ﷺ مكة ، وهو واضع رأسه تواضعًا لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أن ذقنه ليكاد يمسّ واسطة الرحل ، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح .

ورفع - في دخول مكة فاتحًا - كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع ، فأردف أسامة بن زيد ، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحدًا من أبناء بني هاشم ، وأبناء أشراف قريش ، وهم كثير .

وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة .

---

(١) الحدق جمع حدقة وهي السواد المستدير وسط العين ، والمراد هنا العين مطلقًا .

(٢) قبل (بكسر الأول وفتح الثاني) طاقة .

وكلمة رجل يوم الفتح ، فأخذته الرعدة ، فقال : «هوِّن عليك ، فإني لست بملك وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد »[1] .

مرحمة لا ملحمة :

ولما مرّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار ، قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحلّ الحرمة ، اليوم أذلّ الله قريشًا ، فلما حاذاه رسول الله ﷺ في كتيبته ، شكا إليه ذاك أبو سفيان، قال : يا رسول الله ! ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال: وما قال ؟ ، قال : كذا وكذا .

فاستنكر رسول الله ﷺ مقالة سعد ، وقال : « بل اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشًا ، ويعظم الله فيه الكعبة » ، وأرسل إلى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه .

مناوشات قليلة :

وكانت مناوشة قليلة بين صفوان بن أمية وعِكرمة بن أبي جهل وسهيل ابن عمرو ، وبين أصحاب خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريبون من اثني عشر رجلاً ، ثم انهزموا ، وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائهم من المسلمين حين يدخلون مكة : ألّا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

تطهير الحرم من الأوثان والأصنام :

ولما نزل رسول الله ﷺ واطمأن الناس ، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاث مائة وستون صنمًا ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ والأصنام تتساقط على وجوهها .

---

(١) هو اللحم المملوح المجفف في الشمس .

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل ، فأمر بالصور ، وبالتماثيل فكسرت .

اليوم يوم بر ووفاء :

ولما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له . ودخل وكان قد طلب منه المفتاح يومًا قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال : يا عثمان ! لعلك ترى هذا المفتاح يومًا بيدي ، أضعه حيث شئت ، فقال : لقد هلكت قريش يومئذ وذلّت ، فقال : بل عمرت وعزّت يومئذ ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعًا ، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال .

فلما خرج من الكعبة ، قام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة بيده ﷺ ، قال لرسول الله ﷺ : اجمع لنا الحجابة مع السقاية ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ ، فدعى له ، فقال : «هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برّ ووفاء ، خذوها خالدة تالدة [١] لا ينزعها منكم إلا ظالم » .

الإسلام دين توحيد ووحدة :

وفتح رسول الله ﷺ باب الكعبة ، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضادتي [٢] الباب وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثره [٣] ومال أو دم ، فهو تحت قدميّ هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

« يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم **نخوة الجاهلية** ، وتعظمها

---

(١) تالدة : خذوها موروثة من القديم .

(٢) عضادتا الباب : خشبتاه من جانبيه .

(٣) مأثرة : مكرمة ومفخرة تؤثر وتروي .

بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

نبي المحبة ورسول الرحمة :

ثم قال رسول الله ﷺ : « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ » .

قالوا : خيرًا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

وأمر بلالاً أن يصعد ، فيؤذن على الكعبة ، ورؤساء قريش يسمعون كلمة الله تعلو ، ومكة ترتجّ بالآذان ، ودخل رسول الله ﷺ دار أم هانئ بنت أبي طالب ، فاغتسل ، وصلّى ثماني ركعات صلاة الفتح ، شكرًا لله عليه .

لا تمييز في تنفيذ حدود الله :

وسرقت امرأة من بني مخزوم ـ اسمها فاطمة ـ في هذه الغزوة ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد ، لمكانته عند رسول الله ﷺ يستشفعونه ، فلما كلّم رسول الله ﷺ تلوّن [1] وجهه ، وقال : أتكلّمني في حدّ من حدود الله ، قال أسامة استغفر لي يا رسول الله !

فلما كان العشي ، قام رسول الله ﷺ خطيبًا ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « **أما بعد ، فإنما هلك الناس قبلكم ، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف ، أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس**

(١) تغير .

محمد بيده لو أن فاطمة بيت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة ، فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك .

بيعة على الإسلام :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام ، فجلس لهم على الصفا ، وأخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله ، فيما استطاعوا .

ولما فرغ من بيعة الرجال ، بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنقّبة [1] متنكّرة، لما كان من صنيعها بحمزة ، وعرفها رسول الله ﷺ بحديثها الجريء ، وأسلمت وبايعت.

المحيا محياكم والممات مماتكم :

ولما فتح الله مكة على رسوله ، وهي بلده ووطنه ومولده ، تحدّث الأنصار فيها بينهم ، فقالوا : إن رسول الله ﷺ قد فتح عليه أرضه وبلده ، فهو مقيم بها ، لا يعود إلى المدينة .

وسأل رسول الله ﷺ الأنصار عن حديثهم ولا يعرفه غيرهم ، فاستحيوا ، ثم أقرّوا به ، فقال: « **معاذ الله ! المحيا محياكم ومماتكم** » .

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية :

وبث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها ، منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة .

« **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنمًا إلاّ كسره** » وبعث رجالاً من أصحابه إلى القبائل ، فهدموا أصنامها » .

---

(١) يعني مرتدية نقابها .

وقام رسول الله ﷺ في مكة خطيبًا ، فأعلن حرمة مكة إلى يوم القيامة : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ، أو يعضد[1] بها شجرة » ، وقال : « **لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي** » ، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة .

أثر فتح مكة :

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام ، وصاروا يدخلون فيه أرسالاً ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ﴾ .

*****

(١) يعضد : يقطع .

غزوة حنين

اجتماع هوازن :

وبعد أن تم فتح مكة ، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا ، أطلق العرب السهم الأخير في كنانتهم على الإسلام والمسلمين .

وكانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش ، وكان بينها وبين قريش تنافس ، فلم تخضع لما خضعت له قريش .

وقام مالك بن عوف النصري سيد هوازن ، فنادى بالحرب ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ وحطّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ليثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض .

وخرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة ، ومنهم من هو حديث العهد بالإسلام ، ومنهم من لم يسلم ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ، فبلغ عددهم إلى ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك ، حتى قال أناس من المسلمين : لن نُغلَب اليوم من قلة ، وأعجبتهم كثرة الناس .

في وادي حنين :

واستقل المسلمون وادي حنين ، وذلك في عاشر شوال ، سنة ثمان ، وهم ينحدرون فيه انحدارًا في ظلام الصبح ، وكانت هوازن قد سبقتهم إلى الوادي ، وكمنوا لهم في شعابه فما راع المسلمين إلا أن رشقوهم بالنبال وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد ، وكانوا قومًا رماة.

وانشمر عامة المسلمين راجعين ، لا يلوي منهم أحد على أحد .

وكانت فترة حاسمة ، يوشك أن تدور الدائرة على المسلمين ، فلا تقوم لهم

قائمة بعد ذلك وكانت شبيهة بما وقع يوم أُحد ، حين طار في الناس أن النبي قد قتل ، وانحسر عنه المسلمون .

الفتح والسكينة :

ولما تم ما أراده الله من تأديب المسلمين الذين أعجبتهم الكثرة ، وأذاقهم الله مرارة الهزيمة بعد حلاوة الفتح ، ردّ لهم الكرّة على الأعداء ، وأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وكان رسول الله ﷺ واقفًا في موقفه ، على بغلته الشهباء [1] غير وجل ولا هياب ، وقد بقي معه نفر من المهاجرين والأنصار ، وأهل بيته ، والعباس بن عبد المطلب ، أخذ بِحَكَمِة [2] بغلته ورسول الله ﷺ يقول :

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ولما استقبلته كتائب المشركين ، أخذ قبضة من تراب ، ورمى بها إلى عيون الأعداء إلى البعد، فملأت أعين القوم .

ولما رأى انشغال الناس بأنفسهم ، قال : يا عباس ! اصرخ : يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة ! فأجابوا : لبيك ، لبيك ، وكان رجلاً صيتًا فيؤم الرجل الصوت ، ويقتحم عن بعيره ، ويأخذ سيفه وترسه ، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم طائفة ، استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه .

واجتلد الناس ، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتّفين عند رسول الله ﷺ ، وأنزل الله ملائكته بالنصر . فامتلأ بهم

---

(١) البيضاء .

(٢) الحكمة : هي حديدة تكون في أنف الفرس وحنكه ، تمنعه عن مخالفة راكبه .

الوادي ، وتمت هزيمة هوازن ، وذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥ ، ٢٦] .

*****

غزوة الطائف

فلول ثقيف :

وقدم فلول ثقيف الطائف ، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها ، ورمّوا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، وأعدّوا للحرب عدتها فسار رسول الله ﷺ إليهم ومضى حتى نزل قريبًا من الطائف ، فضرب به عسكره ، وكان العسكر قريبًا من حائط الطائف ، ولم يقدروا على أن يدخلوه، فقد أغلقوا دونهم ، ورمت ثقيف المسلمين بالنبل رميًّا شديدًا ، كأنه رجْلُ جراد ، وكانوا رماة .

حصار الطائف :

فنقل العسكر إلى مكان آخر ، وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة ، وقاتلهم قتالاً شديدًا وتراموا بالنبل ، واستخدم رسول الله ﷺ في هذا الحصار ، المنجنيق [1] لأول مرة ، واشتدّ الحصار ، وقتل رجال من المسلمين بالنبل .

الرحمة في ميدان الحرب :

ولما ضاق الحصار ، وطالت الحرب ، أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف ، وهي مما يعتمدون عليها في معاشهم ، ووقع الناس فيها يقطعون ، فسألوه أن يدعها لله ، وللرحم ، فقال رسول الله ﷺ فإني أدعها لله وللرحم .

ونادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل من الحصن ، وخرج إلينا فهو حرّ ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً .

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف ، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) المنجنيق (بفتح الميم والجيم وسكون النون) . آلة ترمى بها الحجارة .

فأذن في الناس بالرحيل، فضجّ الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ، فقال رسول الله ﷺ فاغدوا على القتال ، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ : إنا قافلون غدًا إن شاء الله ، فسرّوا .

رفع الحصار :

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف ، وأراد أن يدخلوا في الإسلام طائعين ، فأذن في الناس بالرحيل .

سبايا حنين ومغانمها :

ونزل رسول الله ﷺ الجعرانة فيمن معه من الناس ، واستأنى بهوازن ، أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة ، ثم بدأ بالأموال ، فقسمها ، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم أول الناس .

ردّ السبايا على هوازن :

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً ، فسألوه أن يمنَّ عليهم بالسبي والأموال ، فقال : إن معي من ترون ، وأن أحب الحديث إلى أصدقه فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

قالوا : ما كنا نعدل بالأبناء والنساء شيئًا ، وقال : إذا صليت الغداة ، فقوموا ، فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يردّ علينا سبينا ، فلما صلى الغداة ، قاموا ، فقالوا ذلك فقال رسول الله ﷺ : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس ، فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وأبي ثلاثة من بني تميم وبني فزارة وبني سليم أن يتنازلوا عن سبيهم ، فقال رسول الله ﷺ : إن هؤلاء القوم قد جاؤوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت

بهم ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا ، فمن كان عنده منهن شيء ، فطابت نفسه بأن يردّه فسبيل ذلك ، ومن أحب أن يستمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله بكل فريضة ست فرائض ، من أول ما يفيء الله علينا .

فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ ، فقال : إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا ، حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ولم يتخلف منهم أحد، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية[1] قبطية .

رقة وكرم :

وكان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله ﷺ الشيماء بنت حليمة السعدية أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، وعنفوا عليها في السوق وهم لا يدرون ، فقالت للمسلمين : تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ .

ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت : يا رسول الله ! إني أختك من الرضاعة ، قال: ما علامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتنيها في ظهري ، وأنا متوركتك[2] ، وعرف رسول الله ﷺ العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيّرها ، وقال : إن أحببت فعندي محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت ، فقالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي ، ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت ، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعمًا وشاة .

---

(١) قبطية : بضم القاف ، وهي ثياب من مصر رقيقة بيضاء .

(٢) يعني حاملتك على وركي .

طائعون لا كارهون :

ولما ارتحل المسلمون من الطائف ، واستقبلوا ، قال رسول الله ﷺ : قولوا : آيبون ، تائبون ، عابدون لربنا ، حامدون ، قيل يا رسول الله ! ادُع الله على ثقيف ، قال : اللهم اهد ثقيفًا وائت بهم.

لحق عروة بن مسعود الثقفي ، وأدرك رسول الله ﷺ قبل أن يدخل المدينة فأسلم ، ورجع يدعو قومه إلى الإسلام ، وكان محببًا إليهم ، صاحب منزلة فيهم ، فلما دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر عليهم دينه رموه بالنبل ، فقتل شهيدًا .

وأقام ثقيف بعد قتله أشهر ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا ، فأرسلوا وفدًا إلى رسول الله ﷺ .

لا هوادة مع الوثنية :

وقدموا على رسول الله ﷺ وضرب عليهم قبّة [(١)] في ناحية مسجده ، وأسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم اللات ، لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ عليهم ، وما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم رسول الله ﷺ حتى سألوا شهرًا واحدًا بعد قدومهم ، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ـ وهو من قومهم ـ يهدمانها وسألوه أن يعفيهم من الصلاة ، فقال : لا خير في دين لا صلاة فيه .

ولما فرغوا من أمرهم وتوجّهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان ابن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الإسلام في ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم .

---

(١) هي بيت صغير من الخيام .

غزوة تبوك

كان العرب لا يحلمون بغزو الروم والزحف عليهم ، بل كانوا يرون أنفسهم أصغر من ذلك .

وقد كان الروم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة ، التي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها .

ورأى رسول الله ﷺ أن يتقدم بجيش المسلمين إلى بلاد الروم ويدخل فيها قبل أن تدخل الجيوش الرومية حدود العرب ، وتتحدّى مركز الإسلام .

زمن الغزوة :

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع «غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد ، حين طابت الثمار والظلال ، واستقبل سفرًا بعيدًا ، ومغارًا [١] ، وعدوًا كثيرًا ، فجلّى [٢] للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، وكان الزمن زمن عسرة الناس ، وجدب البلاد» .

وتعلّل المنافقون بعلل ، وكرهوا الخروج مع رسول الله ﷺ إشفاقًا من العدو القوى القاهر ، وفرارًا من الحرّ الشديد ، وزهادة في الجهاد ، وشكًّا في الحق ، **وفي ذلك يقول الله تعالى** : ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : ٨١] .

---

(١) فلاة لا ماء فيها .

(٢) فأوضح .

تنافس الصحابة في الجهاد والمسير :

وجدّ رسول الله ﷺ في سفره ، وأمر الناس بالجهاز ، وحضّ أهل الغني على النفقة في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى عددًا من المسلمين الذين لا يملكون زادًا ولا راحلة ، واحتسبوا، وجهّز عثمان بن عفان جيش العسرة ، وأنفق ألف دينار ، ودعا له رسول الله ﷺ .

مسير الجيش إلى تبوك :

خرج رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفًا من الناس ، من المدينة إلى تبوك وكان أكبر جيش خرج به في غزوة .

ونزل بـ «الحجر» ديار ثمود ، وأخبرهم بأنها ديار المُعَذَّبين وقال : «**لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ، خوفًا أن يصيبكم ما أصابهم** » .

وأصبح الناس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا ، فأرسل الله ـ سبحانه ـ سحابة ، فأمطرت ، حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء .

عودة الرسول إلى المدينة :

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك ، أتاه أمراء من العرب ، مقيمون بالحدود ، فصالحوا رسول الله ﷺ وأعطوه الجزية وكتب لبعضهم رسول الله ﷺ كتاب أمن فيه شرط كفالة الحدود، وتأمين المياه والطرق والضمان لسلامة الفريقين .

وهنا بلغ أمر انسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود ، فلم ير رسول الله ﷺ محلاً لتتبعهم داخل بلادهم ، وقد تحقق الغرض .

وأقام رسول الله ﷺ بـ «تبوك» بضع عشرة ليلة ، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة .

ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه :

وكان من بين من تخلف عن هذه الغزوة ، كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الإسلام ، وكان مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ممن شَهِدا بدرًا ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم ، ولم يكن ذلك إلا من حكمة إلهية ، وتمحيصًا لأنفسهم ، وتربية للمسلمين ، وإنما هو التسويف ، وضعف الإرادة ، والاعتماد الزائد على الوسائل الموجودة .

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامهم ، وما كان من المسلمين إلا السمع والطاعة ، فاجتنبهم الناس، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة ، وكان كعب بن مالك يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق ولا يكلمه أحد ، ولم يزده هذا العتاب إلا رسوخًا في المحبة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدّى إلى أزواج هؤلاء الثلاثة ، فأمروا أن يعتزلوهنّ ففعلوا .

وفي هذا الحال دعا ملك غسان كعب بن مالك إلى عاصمته ليكرمه وينعم عليه فجاءه رسوله ودفع إليه كتابًا منه ، فما كان من كعب إلاّ أن قصد به تنورًا ورماه فيه .

ولما تمّ ما أراده الله من تمحيص هؤلاء الثلاثة المؤمنين ، وقد ضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، أفرج عنهم وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات فقال : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٧ ، ١١٨] .

غزوة تبوك آخر غزوة :

وبغزوة تبوك انتهت الغزوات النبوية ، التي بلغ عددها سبعًا وعشرين غزوة ، والبعوث والسرايا ، التي بلغ عددها ستين - ولم يكن في كلها قتال ، ولم تتجاوز قتلاها كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين ، وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلا الله ، باسطة الأمن في أرجاء الجزيرة ، حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحدًا إلا الله » .

أول حج في الإسلام ونزول البراءة :

وفرض الحج سنة تسع ، وبعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا للحج في هذه السنة ، ليقيم للمسلمين حجهم ، وخرج مع أبي بكر من أراد الحج من المسلمين في ثلاثة مائة رجل من المدينة ، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ، فقال له : اخرج وأذّن في الناس يوم النحر أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

*****

عام الوفود

تقاطر الوفود إلى المدينة:

وبعد أن فتح الله مكة ، وعاد نبيّه من تبوك ، سالمًا غانمًا ، تقاطرت الوفود إلى مركز الإسلام، وكانت تعود إلى مواطنها مع حماس في الدعوة إلى الإسلام ، وكراهة شديدة للوثنية وآثارها، والجاهلية وشعائرها .

وقدم ضمام بن ثعلبة وافدًا عن بني سعد بن بكر ، ورجع إلى قومه داعيًا ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزّى ، قالوا : مه يا ضمام اتّق البرص ، اتق الجذام ، واتق الجنون، وقال: ويلكم ! إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً ، ونزّل عليه كتابًا ، استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده ، بما أمركم به وما نهاكم عنه ، فما أمسي من ذلك اليوم في حيّه رجل ولا امرأة إلا مسلمًا .

وقدم عدي بن حاتم الجواد المشهور ، وأسلم بعدما رأى أخلاق رسول الله ﷺ وتواضعه، حتى قال : والله ما هذا بأمر ملك .

وبعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى إلى اليمن ، للدعوة إلى الإسلام ، وأوصاهما وقال : يسّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ، ولا تنفّرا .

وبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة إلى الطائف فكسر اللات ، ثم علا أعلى سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها ، حجرًا حجرًا ، حتى سوّوها بالأرض ، وأقبل الوفد حتى دخل على رسول الله ﷺ من يومه وحمده .

وكانت الوفود تتعلم الإسلام ، وتتفقّه في الدين ، وتشهد أخلاق رسول الله ﷺ ، وعشرة أصحابه ، وقد تضرب لهم خيم في فناء المسجد ، فيسمعون القرآن ، ويرون المسلمين يصلّون ، ويسألون رسول الله ﷺ ، عمّا يجول في خاطرهم في بساطة وصراحة ، ويجيبهم رسول الله ﷺ في بلاغ وحكمة ، ويستشهد بالقرآن فيؤمنون ويطمئنون .

فرض الزكاة والصدقات :

وفي السنة التاسعة للهجرة فرضت الزكاة .

*****

حجة الوداع

أوان حجة الوداع :

ولما تم ما أراده الله ، من تطهير بيته ، من الرجس والأوثان ، وتاقت نفوس المسلمين إلى الحج، وقد بعد عهدهم عنه ، وطفحت [(١)] كأس الحب والحنان ، ودنت ساعة الفراق ، وألجأت الضرورة إلى وداع الأمة ، أذن الله لنبيّه في الحج - ولم يكن قد حجّ ﷺ ، في الإسلام .

فخرج من المدينة ليحج البيت ، ويلقى المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ويمحو آثار الجاهلية ، ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه ، وحجّ معه أكثر من مائة ألف إنسان ، وسميت هذه الحجة بـ «حجة الوداع» و «حجة البلاغ» .

كيف حج النبي ﷺ ؟

عزم رسول الله ﷺ على الحج ، وأعلم الناس أنه حاجّ ، فتجهّزوا للخروج معه .

وسمع بذلك مَن حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج ، مع رسول الله ﷺ ووافاه في الطريق خلائق لا يُحْصَوْن ، فكانوا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، مده البصر، وخرج من المدينة نهارًا بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت ، بعد أن صلى الظهر بها أربعًا، وخطبهم قبل ذلك

---

(١) امتلأت وفاضت .

خطبة ، علمهم فيها الإِحرام [١] وواجباته وسنه .

ثم سار وهو يلبّي ، ويقول : لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك ، ودخل مكة في رابع ذي الحجة ، ودخل المسجد الحرام ، وطاف بالبيت ، وسعى بين الصفا والمروة ، وأقام بمكة أربعة أيام ، ثم توجّه يوم التروية [٢] (ثامن ذي الحجة) توجه بمن معه من المسلمين إلى منى ، ونزل بها ، وصلى بها الظهر والعصر ، وبات بها.

فلما طلعت شمس اليوم التاسع من ذي الحجة ، سار من منى إلى عرفة ، وكان يوم جمعة فنزل بها .

وخطب الناس يوم عرفة وهو على راحلته ، خطبة عظيمة ، قرر فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرّر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت المللُ على تحريمها وهي الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع فيها ربا الجاهلية كله، وأبطله ، وأوصاهم بالنساء خيرا ، وذكر الحق الذي لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف .

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لم يضلّوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبرهم أنهم مسؤولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت ، فرفع إصبعه إلى

---

(١) الإحرام : في اللغة ، المنع . وفي الشرع ، هو الإهلال بالحج أو العمرة ومباشرة أسبابهما من خلع الملابس المخيطة والاجتناب من الأشياء التي منع الشرع منها ، كالطيب والنكاح والصيد وما إلى ذلك .

(٢) يوم التروية : ثامن ذي الحجة ؛ لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء ، ويستقون ويسقون .

السماء ، واستشهد الله عليهم ثلاث مرات وأمرهم أن يبلّغ شاهدهم غائبهم .

فلما أتم الخطبة ، أمر بلالاً فأذّن ، ثم أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضًا .

فلما فرغ من صلاته ، ركب حتى أتى الموقف (١) ، فوقف ، وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء والتضرُّع والابتهال إلى غروب الشمس ، وكان في دعائه وافقًا يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين، يقول فيها : «اللهم ! إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث (٢) ، المستجير (٣) ، والوجل المشفق (٤) ، المقر المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذل جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم ! لا تجعلني بدعائك رب شقيا ، وكن بي رؤوفًا رحيمًا ، يا خَير المسؤولين ، ويا خير المعطين » .

وهناك أنزلت عليه : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة : ٣] .

فلما غربت الشمس ، أفاض (٥) من عرفة ، حتى أتى المزدلفة ، وصلى هنالك المغرب والعشاء ، ثم نام حتى أصبح ، فلما طلع الفجر صلاها في أول

---

(١) محل الوقوف من عرفة .

(٢) المستنصر .

(٣) الملتجئ .

(٤) الخائف .

(٥) الإفاضة : الزحف والدفع في السير بكثرة .

الوقت ، ثم ركب حتى أتى المشعر [١] الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدعاء والتضرع والتكبير والتهليل ، ثم سار من مزدلفة قبل طلوع الشمس وأسرع في السير حتى أتى مني ، فأتى جمرة العقبة [٢] ، فرماها .

ثم رجع إلى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألَّا يرجعوا بعده كفارًا ، يضرب بعضهم رقاب بعض، وأمر بالتبليغ عنه ، وقال في خطبته تلك : «اعبدوا ربكم ، وصلّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » ، وودّع حينئذ الناس ، فقالوا : «حجة الوداع » .

ثم انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثًا وستين بدنة [٣] بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثم أمسك، وأمر عليًّا أن ينحر ما بقي من المائة ، فلما أكمل ﷺ نحره ، استدعى بالحلاّق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين من يليه ، ثم أفاض إلى مكة راكبًا ، وطاف طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، ثم أتى زمزم ، فشرب وهو قائم ، ثم رجع إلى مني من يومه ذلك فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت ، مشى من رحله إلى الجمار [٤] ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم الجمرة الثالثة ، وهي جمرة العقبة .

---

(١) موضع في المزدلفة .

(٢) الموضع الذي يرمى بالجمار (أي الأحجار الصغار) ، والعقبة مكان في منى تقع فيه الجمرة الثالثة .

(٣) البدنة : هي من الجمل والناقة والبقرة ما يهدي إلى بيت الله ولا يركب .

(٤) أي الجمرات الثلاث ، وتطلق على الصغار من الحصى أيضًا .

وتأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق [1] الثلاثة ، ثم نهض إلى مكة ، فطاف للوداع ليلاً سحرا، وأمر الناس بالرحيل ، وتوجه إلى المدينة .

فلما أتى ذا الحُليفة ، وبات بها ، فلما رأى المدينة ، كبّر ثلاث مرات ، وقال: «لا إله إلا الله وحده، لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم دخلها نهارًا .

*****

(١) أيام التشريق ، أصل التشريق هو تقديم اللحم وتجفيفه في الشمس ، سميت الأيام الثلاثة (العاشر، والحادي عشر ، والثاني عشر) من ذي الحجة بأيام التشريق ؛ لأن لحوم الأضاحي كانت تشرق فيها بمنى .

الوفاة

كمال مهمة التبليغ والتشريع ودنو ساعة اللقاء :

ولما بلغ هذا الدين ذروة الكمال ، ونزل قوله تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، وبلّغ رسول الله ﷺ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وأقرّ الله عين نبيه بدخول الناس في هذا الدين أفواجًا ، أذِن الله لنبيِّه بفراق هذا العالم ودنت ساعة اللقاء ، وأعلم بذلك فقال : ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١ -٣].

شكوى رسول الله ﷺ :

وقد ابتدأ شكوى رسول الله ﷺ في آخر شهر صفر ، وكان مبدأ ذلك أنه ﷺ خرج إلى «بقيع الغرقد» [1] من جوف الليل ، فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك .

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : رجع رسول الله ﷺ من البقيع ، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي وأنا أقول : وا رأساه ! فقال بل أنا والله يا عائشة وا رأساه ! ، واشتد به وجعه ، وهو في بيت ميمونة رضي الله عنها فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرّض في بيت عائشة ، فأذن له ، وخرج يمشي بين رجلين من أهله ، أحدهما : الفضل بن عباس ، والآخر علي بن أبي طالب عاصبًا رأسه ، تخطّ قدماه ،

(١) مقبرة بالمدينة المنورة تسمى الآن ب «البقيع» .

حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها .

تقول عائشة رضي الله عنها وكان يقول في مرضه الذي مات فيه :

« يا عائشة ! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بـ «خيبر» ، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[1] من ذلك السمّ .

آخر البعوث :

وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام ، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء و«الدارون» من أرض فلسطين .

وانتدب كثيرًا من الكبار من المهاجرين والأنصار في جيشه ، كان من أكبرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعثه رسول الله ﷺ ، واشتد به المرض ، وجيش أسامة مخيم بـ «الجرف» ، ونفّذ أبو بكر جيش أسامة بعد وفاة الرسول ﷺ تحقيقًا لرغبته ، وإكمالاً لمراده .

وأوصى المسلمين في مرضه أن يجيزوا الوفد بنحو ممّا كان يجيزهم به ، وأن لا يتركوا في جزيرة العرب دينين ، قال : «أخرجوا منها المشركين » .

دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلو والكبرياء :

وفي يوم من أيام شكواه ، اجتمع نفر من المسلمين في بيت عائشة ، فرحّب بهم رسول الله ﷺ وحيّاهم ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق ، وقال : أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إني لكم منه نذير مبين ، أن لا تعلو على الله في عباده وبلاده ، فإن الله قال لي ولكم :

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ

(١) الأبهر . عرق مستبطن بالصلب يتصلب بالقلب ، فإذا انقطع مات صاحبه .

ﭐلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] ، وقال : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

زهد في الدنيا وكراهة لما فضل من المال :

قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه : «يا عائشة ! ما فعلت الذهب ؟» فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة ، فجعل يقلبها بيده ويقول : ما ظن محمد بالله عز وجل ، لو لقيه وهذه عنده ، أنفقيها .

اهتمام بالصلاة وإمامة أبي بكر :

وثقل برسول الله ﷺ وجعه فقال : أصلى الناس ؟ قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! فقال : ضعوا لي ماء في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال أصلى الناس ؟ ، قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! قال : ضعوا لي ماء في المخضب[1] ، ففعلوا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال أصلى الناس ؟ ، قالوا: لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! قال : ضعوا لي ماء في المخضب ، ففعلوا فاغتسل ، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلى الناس ؟ قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! ، والناس عكوف[2] في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس ، وكان أبو بكر رجلاً رقيقًا ، فقال يا عمر ! صلّ بالناس فقال : أنت أحق بذلك، فصلى بهم تلك الأيام .

---

(١) وعاء مثل المركن يغسل فيه الثياب .

(٢) جمع عاكف . مقيمون .

ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفّة ، فخرج بين رجلين ، أحدهما العبّاس ، (والآخر علي بن أبي طالب) ﷺ لصلاة الظهر ، فلما رآه أبو بكر ، ذهل ليتأخر فأومأ إليه ألّا يتأخر ، وأمرهما ، فأجلساه إلى جنبه ، فجعل أبو بكر يصلي قائمًا ، ورسول الله ﷺ يصلي قاعدًا .

خطبة الوداع :

وكان فيما تكلم به رسول الله ﷺ وهو جالس على المنبر ، عاصبًا رأسه «أن عبدًا من عباد الله ، خيّره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » ، وفهم أبو بكر معنى هذه الكلمة ، وعرف أن رسول الله ﷺ يعني نفسه ، فبكي ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا .

آخر نظرة إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة :

وكان أبو بكر يصلي بالمسلمين ، حتى إذا كان يوم الاثنين ، وهم صفوف في صلاة الفجر كشف النبي ﷺ ستر الحجرة ، ينظر إلى المسلمين ، وهم وقوف أمام ربهم ، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده ، فملئ من السرور ما الله به عليم ، واستنار وجهه وهو منير ، يقول الصحابة ﷺ :

«كشف النبي ﷺ ستر حجرة عائشة ، ينظر إلينا وهو قائم ، كأن وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسّم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح ، وظننا أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة ، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم ، وأرخى الستر ، وتوفي من يومه ﷺ .

تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد :

كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يبقين دينان على أرض العرب » .

تقول عائشة وابن عباس رضي الله عنهم : لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة [1] له على وجهه ، فإذا اغتمّ كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، يحذّر ما صنعوا .

الوصية الأخيرة :

كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضره الوفاة .

« الصلاة وما ملكت أيمانكم » ، حتى جعل يغرغر بها صدره وما يكاد يفيض بها لسانه .

ويقول علي رضي الله عنه : أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم .

وتقول عائشة رضي الله عنها ذهبت أعوّذه ، فرفع بصره إلى السماء ، وقال : بل الرفيق الأعلى ، بل الرفيق الأعلى .

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر ، وبيده جريدة [2] رطبة ، فنظر إليها ، فظننت أن له بها حاجة ، قالت : فأخذتها فنفضتها ، فدفعتها إليه ، فاستنّ بها أحسن ما كان مستنًا ، ثم ذهب يناولنيها ، فسقطت من يده .

قالت : وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء ، فجعل يدخل يده في الماء ، فيمسح بها وجهه ، ثم يقول: « لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات » ثم نصب أصبعه اليسرى ، وجعل يقول : بل الرفيق الأعلى ، بل الرفيق الأعلى ، حتى قبض ، ومالت يده في الماء .

وقالت : نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي ، غشي عليه ساعة ، ثم

---

(١) الخميصة ـ كساء أسود مربع له علمان .

(٢) الجريدة قضيب النخل المجرد من الخوص .

أفاق ، فأشخص[1] بصره إلى سقف البيت ، فقال : اللهم الرفيق الأعلى ، وكانت آخر كلمة تكلّم بها رسول الله ﷺ .

كيف فارق رسول الله ﷺ الدنيا ؟

فارق رسول الله ﷺ الدنيا ، وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبه ملوك الدنيا ، وما ترك عند موته دينارًا ولا درهمًا ، ولا عبدًا ولا أَمَة ، ولا شيئًا ، إلا بغلته البيضاء وسلاحه ، وأرضًا جعلها صدقة .

وتوفي ودرعه مرهونة عند يهوديّ بثلاثين صاعًا من شعير ، ما وجد ما يفتّك به حتى مات ﷺ .

أعتق رسول الله ﷺ **في مرضه** هذا أربعين نفسًا ، وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة رضي الله عنها **أن تتصدق بها** .

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : **توفي رسول الله ﷺ** وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف[2] **لي ، فأكلت منه ، حتى** طال عليّ ، فكلته ففني .

وكان ذلك في يوم **الاثنين ، ١٢ / ربيع الأول** ، سنة ١١/ للهجرة بعد الزوال ، وله ﷺ **ثلاث وستون سنة ، وكان أشد** الأيام سوادًا ووحشية ومصابًا على المسلمين **ومحنة للإنسانية ، كما كان يوم** ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

يقول أنس و**أبو سعيد الخدري** رضي الله عنهما : **كان اليوم** الذي قدم فيه رسول الله ﷺ أضاء منها **كل شيء ، فلما كان اليوم الذي** مات فيه أظلم منها كل شيء ، وبكت أم أيمن **فقيل لها : ما يبكيك على النبي** ﷺ ؟ قالت : إني قد علمت أن

(١) أي رفع بصره ولم يطرق .

(٢) رف : هو خشبة عريضة يغرز طرفاها في الجدار وتوضع عليها الأشياء ، وهو يشبه الطاق .

رسول الله ﷺ سيموت ، ولكن إنما أبكي على الوحي الذي رفع عنّا .

كيف تلقى الصحابة نبأ الوفاة ؟

ونزل نبأ وفاة رسول الله ﷺ على الصحابة كالصاعقة لشدة حبّهم له ، وما تعودوه من العيش في كنفه ، عيش الأبناء في حجر الآباء وكنفهم ، بل أكثر من ذلك ، قد قال الله تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

وقد كان كل واحد منهم يحسب أنه أكرم عليه وأجبّ لديه من صاحبه ، ولم يكد بعضهم يصدّق بنبأ وفاته ، وكان في مقدمتهم عمر بن الخطاب ﷺ فأنكر على من قال : مات رسول الله ﷺ وخرج إلى المسجد ، وخطب الناس وقال : إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين.

موقف أبي بكر الحاسم :

وكان أبو بكر ﷺ رجل الساعة المطلوب ، والجبل الراسي [١] الذي لا يحول ولا يزول ، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر ، حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء ، حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة ، وهو مسجّى [٢] فكشف عن وجهه ، ثم أقبل عليه، فقبّله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا ، وردّ البرد على وجهه ﷺ .

ثم خرج وعمر يكلّم الناس ، فقال : **على رسلك [٣] يا عمر ! وأنصت**

---

(١) الثابت الراسخ .

(٢) مغطى ببرد .

(٣) أي اثبت ولا تعجل .

فأبى إلا أن يتكلّم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«أيها الناس ! إنه من كان يعبد محمدًا ، فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

يقول من شهد هذا الموقف : والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها الناس عن أبي بكر ، فإنما هي في أفواههم ، ويقول عمر : والله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرتُ [١] ، حتى وقعت إلى الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات .

*****

(١) تحيرت ودهشت .

بيعة أبي بكر بالخلافة

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة ، في سقيفة [١] بني ساعدة ، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم ، وتمزيق [٢] شملهم [٣] ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة ، وشملهم منتظم ، وعليهم أمير يتولّى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه .

كيف ودّع المسلمون رسولهم وصلوا عليه ؟

وهدأ الناس ، وانجلى عنهم ما كانوا فيه من حيرة وغمرة ، وتشاغلوا بما علمهم رسولهم من عملهم لمن فارق الدنيا .

ولما فرغ من غسله وتكفينه ﷺ وقد تولّى ذلك أهل بيته ، ووضع سريره في بيته ، وحدثهم أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ما قبض نبي إلاّ دفن حيث يقبض ، فَرُفِعَ فراش رسول الله ﷺ الذي توفي فيه ، وحفر له تحته ، وتولّى ذلك أبو طلحة الأنصاري .

ثم دخلوا يصلون عليه أرسالاً ، دخل الرجال حتى إذا فرغوا ، أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء ، أدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد .

وكان ذلك يوم الثلاثاء : وكان يومًا حزينًا **في المدينة** ، **وأذَّن بلال بالفجر** ، **فلما** ذكر النبي ﷺ بكي وانتحب ، فزاد **المسلمين حزنًا** ، **وقد اعتادوا أن**

---

(١) هي صفّة لها سقف كانوا يجتمعون فيها لفصل القضايا ، **وكانت دار ندواتهم .**

(٢) تمزيق : تفريق .

(٣) شمل : ما اجتمع من الأمر .

يسمعوا هذا الأذان ورسول الله ﷺ فيهم ، تقول أم سلمة ـ أم المؤمنين : يا لها من مصيبة ، ما أُصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت ، إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ وقد قال النبي ﷺ بنفسه : يا أيها الناس أيما أحد من الناس أو (من المؤمنين) أصيب بمصيبة ، فليتعزّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيره ، فإن أحدًا من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي .

أزواجه أمهات المؤمنين :

كانت خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية ﵂ أولى أزواج النبي ﷺ تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين ، وجميع أولاده ﷺ منها غير سيدنا إبراهيم .

ثم تزوج بعد موتها بأيام سودة بنت زمعة القرشية ، ثم تزوج بعدها عائشة ، الصديقة بنت الصديق ، وهي أفقه نساء الأمة وأعلمهن ، ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵁ ، ثم تزوج زينب بنت خزيمة ، وتوفيت عنده بعد شهرين ، ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية القرشية المخزومية ، وهي آخر نسائه موتًا ، ثم تزوج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته أميمة ، وتزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية ، ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، ثم صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهي آخر من تزوج بها ، وتوفي ﷺ عن تسع زوجات ، وهنّ من ذكرنا غير خديجة ، وزينب بنت خزيمة ، فقد توفيتا في حياته ﷺ .

وتوفي عن سريتين مارية بنت شمعون القبطية المصرية ، أَهداها إليه المقوقس عظيم مصر ، وهي أم ولده إبراهيم ـ عليه السلام ، وريحانة بنت زيد من بني النضير أسلمت فأعتقها ، ثم تزوجها.

أولاده ﷺ :

ولدت له خديجة القاسم وبه كان يكنى ، طفلاً ، ثم زينب ، ثم رقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، وعبد الله ، والطيب والطاهر ، لقبان له ، وهؤلاء كلهم من خديجة ﵂ ، وفاطمة أحب بناته إليه ، وأخبر بأنها سيدة نساء أهل الجنة ، وتزوجت علي بن أبي طالب ، ابن عم رسول الله ﷺ فولدت له حسنًا وحسينًا ، وفيهما قال رسول الله ﷺ : « **الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة** » .

وولدت له مارية القبطية إبراهيم ، فتوفي وقد ملأ المهد ، وقد قال ﷺ حين توفي :

« **تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا يا إبراهيم لمحزونون** » .

*****

الأخلاق والشمائل

وصفه علي بن أبي طالب ﷺ وهو من أعرف الناس به، وأكثرهم عشرة له، وأقدرهم على الوصف والبيان، فقال:

« لم يكن فاحشًا [١]، متفحشًا [٢]، ولا صخابًا [٣] في الأسواق، ولا يجزي السيئة، بالسيئة ولكن يعفو ويصفح [٤]، ما ضرب بيده شيئًا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادمًا ولا امرأة، ما رأيته منتصرًا [٥] من مظلمة ظلمها قط، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله تعالى، كان من أشدهم غضبًا، وما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

(وإذا دخل بيته) كان بشرًا من البشر، يفلي [٦] ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

ويقول: « لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه بنصيبه، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه [٧] في حاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجته لم يردّه إلاّ بها أو بميسور من القول.

---

(١) أي ذو فحش من القول والفعل، وإن كل استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة.

(٢) أي ولا المتكلف به، أي، ولم يكن الفحش خلقيًا ولا كسبيًا.

(٣) أي صيّاحًا.

(٤) صفح عنه: أعرض عنه وتركه، بابه فتح.

(٥) منتقمًا.

(٦) فلي يفلي رأسه أو ثوبه نقاهما من القمل.

(٧) عامله في حاجة أو خالطه.

قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة .

... أجود الناس صدرًا ، وأصدق الناس لهجة [١] ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبّه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ .

وقد كسا الله نبيّه لباس الجمال ، وألقى عليه محبة ومهابة منه ، ووصفه البراء ابن عازب رضي الله عنه فقال: «كان رسول الله ﷺ مربوعًا [٢] وقد رأيته في حلّة حمراء ، وما رأيت شيئًا قط أحسن منه ، ووصفه أبو هريرة رضي الله عنه فقال : «كان ربعة [٣] ، وهو إلى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية حسن الثغر ، أهدب [٤] أشعار العينين ، بعيد ما بين المنكبين ، (إلى أن قال) لم أر مثله قبل ولا بعد ، ويقول أنس رضي الله عنه : ما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ .

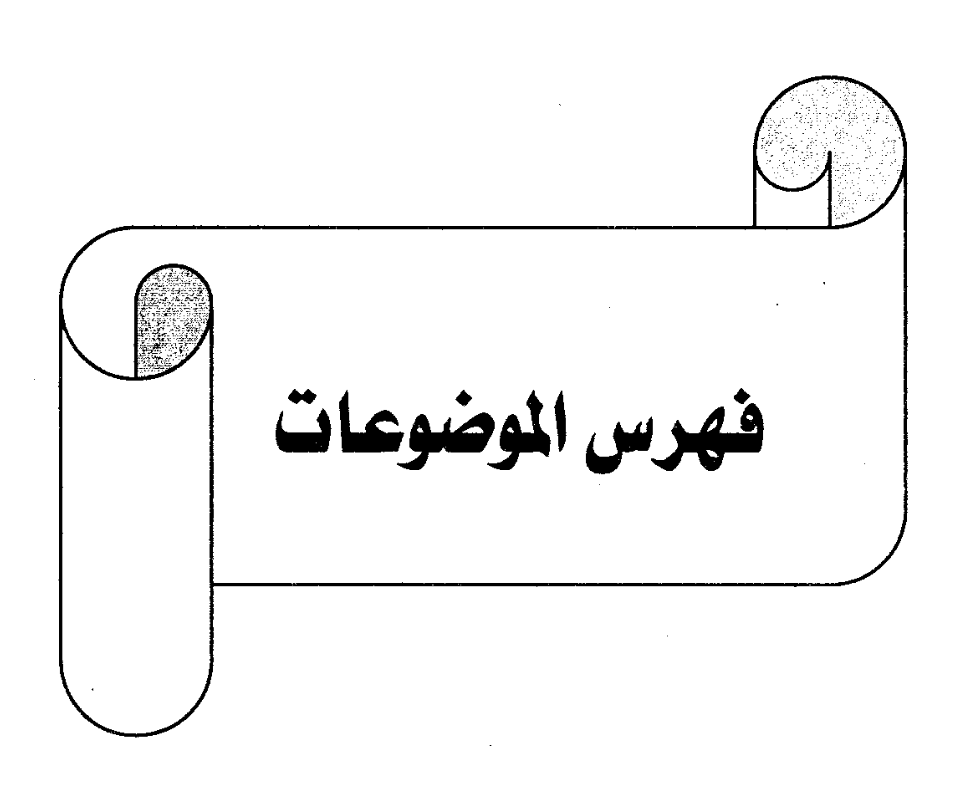
*****

(١) اللسان .

(٢) مربوعًا : أي وسط القامة .

(٣) ربعة : الوسيط القامة .

(٤) الطويل الأشعار .


فهرس الموضوعات

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

*****